

اقرا

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[٣٥٢]

رئيس التحرير: **رجب البنا**

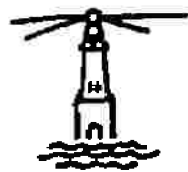
تصميم الغلاف : منال بدران

حليمى مُراد

عندما تحب المرأة

(مجموعة قصص مصرية)

الطبعة الثالثة



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نعيشها .

طه حسين

أيها الربيع ... ترفق !

(قصة فى رسالة)

(١)

يا صديقى ..

سألتنى مراراً أن أفتح لك قلبى ، وأكشف ما فيه .. لكننى طالما ترددت . كنت أشفق أن يثير الحديث كوامن الذكرى ، وينكأ جرحاً لم يندمل .. أو لعلنى كنت أسيراً لهذا الطبع الغالب الذى ما زال يلازمى ، هذه «الحاسة» العجيبة التى تجعلنى لا أجروء على أن أبوح بلسانى ، لأعز إنسان . بما أجروء أن أبوح به على الورق ، لآى انسان .

فهل ترانى أكاشفك اليوم بسرّى ، لأن سفرك يتيح لى فرصة المكاشفة الصامتة ، بالمراسلة ، وأنا آمن من كل حرج .. من كل دمعة فى صوتى ، أو دمعة فى عينى ؟

.. أو أنى أطلق اليوم سرى ، الذى يجثم على صدرى ، لأنى أريد أن أستريح من همى .. ولأن السر المكتوم يرهق المحين كما يرهق المجرمين !؟

... أو أن هناك شيئاً آخر ، غامضاً ، هو الذى يهيب بى اليوم أن
أرى عواطفى لك ... أو لآى كائن كان ؟

أغلب ظنى أنه هذا الصباح الجميل الذى يغلبنى على كنفانى
الطويل . لقد صحت مع الفجر منذ قليل ، ففتحت نافذتى
لأتلقى على كفى نداءه ، كما يتلقى العابد نفحات السماء ، فإذا بى
أرى الدنيا قد اغتسلت بالمطر من برد الشتاء الطويل . . . وأنسام
الربيع العبقرة قد بدأت تترقرق فى الجو ، وتنفض فى أهواء سحرها
وعطرها . وبلى من الربيع . . . إننى أمقتة ، بقدر ما يرق نسيمه
وتتضوع أزهاره . إنه يزرع فى النفوس بلبلة موجهة ، وقلقا مبهماً ،
وشغفاً جنوناً . . . ثم يحرقه أوان الحصاد ، فلا يحصد منا إلا
أنفياً . . . ودمعاً ، لعله أغلى - وأقى - من الدم !

أعرف من الذين يستمتعون بالربيع ؟ . . . إنهم ذوو القلوب
الجامدة ، التى تحسن اللهو والخداع . لكن هناك يا صديقى قلوباً
مرهفة ، يرهقها الحنان ، والحنين . . . كهذا السرب من الفتيات
اليافعات النواتى يحطرن الآن أمام نافذتى فى ثياب المدارس . هذه
الوجوه التى كانت ، متوردة فى بداية الربيع ، ما الذى خطف
لونها ، وكساها بدل النظرة صغيرة وشحوباً ؟ . . . إنه الربيع
الآثم . . . إننى أعرفه ، وأعرف سرهن جميعاً معه . . . باحت لى به
إحداهن . . . واحدة مثلهن ، ذات وجه شاحب حزين . . . لى يرح
خيالى !

على اثر تخصصى فى طب العيون وعودتى من أوروبا - فى إبان الحرب الأخيرة ، وكانت أزمة المساكن قد اشتدت - أخذت أبحث لنفسى عن شقة فى موضع مناسب تصلح كعيادة ، وأخرى قريبة منها ، كى أتخذها مسكناً . وأخيراً عرفتى أحد أصدقائى بمحام كهل يملك «فيلا» فى الجيزة مكونة من جناحين ، يقطن هو وأسرته جناحاً منها فقط - بعد أن توفيت زوجته منذ عهد قريب - ويرغب فى تأجير الجناح الثانى . . فلما عرف الرجل أننى شاب «أعزب» ، أظهر تردداً . . لكنه وافق فى نهاية الأمر ، تحت الحاح صديقى ، لا سيما بعد أن أعانتنى المصادفة فاكتشف - خلال الحديث - صلة زمالة قديمة كانت تربط بينه وبين والدى ، رحمه الله .

واضطرت لأن أقنع بتلك الشقة ، فأخذ منها عيادة ومسكناً فى آن واحد . ويمرور الأيام توثقت العلاقة بينى وبين «محسن بك» - وكان هذا اسمه - خصوصاً بعد أن أظهرت التجربة لى أنه ، فوق نبيل أخلاقه ، «محدث» من الطراز الممتاز . . فكنت أقضى الأمسية معه أحياناً بعد فراغى من العيادة ، نتجاذب الحديث ونسمر . . سواء فى شقته أو شقتى . . وأحياناً نتعشى معاً ، ثم نقضى شطراً من السهرة فى لعبة الشطرنج ، التى كان من هواها البارعين ، فعلمنى إياها . . ومع مضى الزمن أحسست أن الرجل قد تعلق بى ، وبات يعدنى

كابن له ، لا سيما ان الأقدار قد حرمته من البنين ، فلم ترزقه إلا بابنتين ، إحداهما كانت فى السابعة من عمرها ، والأخرى فى الثالثة عشرة ..

وكانت الكبرى «لىلى» شديدة الشغف بالمطالعة ، فكانت تجيشنى أحياناً لتستعير- أو ترد- مجلة أو كتاباً .. أو لتقلب مجموعة المجلات القديمة المجلدة التى تزخر بها مكتبتى .. فكنت أتركها منفردة فى غرفة مكتبى وأتفرغ لشئون مرضاى ، أو أجلس معها قليلاً بعد موعد العيادة لكى أرشدها إلى ما تناسبها مطالعته ، وما يعالج حالتها النفسية بالذات ، فقد كانت أميل إلى الكتابة والوجوم ، (أو من ذوات «المزاج السوداوى» كما يقول علماء النفس) ، ففسرت ذلك بأنه ناتج من حساسيتها الشديدة وشعورها- المبالغ فيه- بضمور جسمها ، وضالة نصيبها من جمال الوجه ، وفتنة الأنوثة الباكرة .. وإن كان وجهها الحزين «المعبر» ، وعيناها الساهمتان ، قد أضفت عليها لوناً خاصاً من الجمال «النفسى» أعجبنى ، وأثار فى نوعاً من الإشفاق عليها ، والاهتمام بأمرها ..

.. ولحظت هى منى ذلك فبدأت تتبسط معى ، إلى حد إبداء رأيها فى انتقاء ثيابى ، ولون رباط الرقبة الذى أرتديه .. وفى الليالى التى كنت أقضى فيها السهرة مع أبيها ، بين حين وآخر ، كانت تدخل لتحضر له شيئاً طلبه ، أو تسأله فى أمر ، فتتهز الفرصة وتبقى معنا فى «الصالون» بعض الوقت .. حتى ينبهها أبوها إلى أن

ساعة النوم قد حانت ، فيتورد وجهها خجلاً من معاملته إياها كطفلة ، ثم تنصرف مكرهة وهي تتعثر في مشيتها ، بعد أن تتبادل ووالدها قبلة المساء ..

وجاء يوم عيد ميلادها ، الرابع عشر ، فأقام «محسن بك» لهذه المناسبة حفلة دعانى إليها ، ودعت هي عدداً من جاراتها وزميلاتها ومعلمات مدرستها . وخلال الحفلة أهدتها إحدى صويحباتها دفتر «أوتوجراف» لجمع التذكارات والإمضاءات ، فدارت به علينا كي يخط كل منا فيه ما يعن له .. ولست أدري أى شيطان أملى على لحظتها أن أكتب لها هذه العبارة : « .. وأنت على عتبة الأنوثة ، أتمنى لك النجاة من خطرين : الربيع ، والأحلام ! » .. فلم تكذ تقرؤها حتى تورد وجهها ، وألم بها ارتباك مفاجيء ، حاولت أن تخفيه فزادته المحاولة وضوحاً .. وكان الأثر المباشر لذلك أنها حرصت بقية السهرة على تجنب الاقتراب منى ، أو ترك بصرها يلتقى ببصرى .. ولا أدري لماذا أحسست إزاء مسلكها هذا بشيء من النشوة ، أغلب الظن أنها نشوة الزهو الذى يتملك الرجل دائماً كلما أحس أن كلمة أو نظرة منه قد نفذت إلى قلب عذراء .. على أننى لم ألبث أن شكرت لها فى نفسى ابتعادها عني ، فقد أتاحت لى بذلك فرصة التحدث فى خلوة طويلة مع حسناء رائعة كانت ليل قد عرفتني بها فى بداية الحفلة ، بوصف أنها «معلمة البيانو» فى مدرستها ، فلم أشعر إلا وقد انقضت السهرة وأنا غارق فى نشوة فتنة «عايدة» وعذوبة

شخصيتها ، وليس في ذهني غير شاغل واحد ، هو تدبير الحيلة التي
تمكنني من أن ألقاها مرة أخرى !

لكن حيرتي لم تطل ، فقد تكفلت ليلى بإيجاد الحل : لم تكذ
الغريزة تراني أنصت بإعجاب إلى مقطوعة عزفتها عايدة في تلك
الليلة ، وتأنس مني ميلا وتذوقاً للموسيقى ، حتى رأيتها تهرع إلى
أبيها في اليوم التالي طالبة موافقته على أن تتلقى دروساً في البيانو . .
على يد «أبله» عايدة .

يا للمسكينة . . كيف خانتها أنوثتها إلى هذا الحد ، فلم تدرك
مغزى حمسى يومئذ لفكرتها تلك ، أو الدافع الذي جعلني أحرص
فيما بعد على «ملازمتها» في الغالب كلما حضرت عايدة لتعطيها
درساً ، مفسراً ذلك بفرط شغفي بالموسيقى ، والبيانو بالذات ؟!

ثم كيف خانتها فطنة الأنثى الفطرية فلم تلحظ النظرات الناعمة
التي صرت أتبادلها مع عايدة - والتي كانت تزداد نعومة كل يوم ! -
واللمسات الخفيفة التي كانت تلتقي فيها أصابعنا ، كأنها عفواً ،
فوق أصابع البيانو . . والكلمات الرقيقة التي حرص كلانا على إخفاء
معانيها المتلوية في قالب من ألفاظ الكياسة ومقتضيات
«التيكيت» ؟؟ وكيف أمكن أن يصم قلب الفتاة المراهف عن
التقاط موجات العاطفة الجارفة التي سرت بين قلب عايدة وقلبي ،
وقد غدا كلاهما جهازاً نابضاً للإرسال والاستقبال في آن معاً . . ؟
بل كيف أمكن أن يعمي قلبي أنا عن أن يلحظ أعراض العلة

الخبشة التي كانت تنسج خيوطها حول قلب الصبية طوال تلك الأشهر ، والهوى الخطير الذي كانت المسكينة ساهرة فيه ؟

إنى لأتبين الآن الجواب عن ذلك كله : لقد غفل كلانا عن إدراك هذا التشابك المعقد لسبب واحد بسيط ، هو أن كلانا كان طائراً في سماءه ، كلانا كان يبكي على ليلاه ، فلم يتنبه لشيء !

.. حتى أقبل الربيع ..

نعم .. فقد أقبل الربيع يا صديقي .. والربيع حين يقبل تطيب الحياة ، وتنتشى الأجسام ، وتثمل الأرواح بخمر عجيبة .. هي مزيج من أنسام الفجر ، وأنفاس الزهر ، وندى السماء ..

أقبل الربيع متلصصاً على قلب ليلي ، الأعزل من كل قدرة على المقاومة .. وكما يجد المرض مرتعاً خصباً في الأجسام التي أنهكها الجوع ونقص التغذية ، وجد الحب في قلب الصبية الجائع مرتعه .. فسرى فيه سريان النار في الهشيم .. وسرعان ما أسفر هواها في عينيها ، فشب فيهما هب وهاج .. وتبدلت كآبتها بهجة ، وانكسارها مرحاً ، وهواً ، وغناء ، يملأ الفضاء ! صارت تصدح بأغاني الموسم الشائعة ليل نهار : في غرفتها ، وفي الشارع ، والحمام .. أو وهي جالسة إلى البيانو تعزف وتغنى وتضحك ، ثم تقفز من المقعد فجأة في منتصف المقطوعة كي تقف في الشرفة المواجهة لي ، كأنها تنتظر مني كلمة إعجاب أو ثناء ..

وفي الصباح الباكر كانت تهبط إلى الحديقة نشيطة كي تقطف لي

باقية من الأزهار الجميلة التي تعرف ولعى بها ، وتوزعها على أصص البيت ، بعد أن ترشق واحدة في عروة سترتى . . ثم تمضى إلى مدرستها والدنيا لا تسعها من فرط الانشراح . .



وكما أصاب التبدل نفسيتها ، نفث أيضاً خيرته في خلايا جسمها . . فإذا الجسد الضامر قد استطال وامتلاً ، ودبت فيه الأنوثة ديباً قوياً . . والوججتان الباهتان قد اضطربت فيهما النار . . والعينان الساهمتان قد أفعمتا بنظرات يقظة ساخنة ، بت أحسها لمحوطنى وترعائى ، وتتبعنى فى غدوى ورواحى ، فى إخلاص الكلب الأمين . .

ثم بدأت أتنبه إلى ظاهرة غريبة : صرت أكتشف كل حين اختفاء أشياء صغيرة تافهة من مسكنى : أولها صورة فوتوغرافية ، فمنديل حريرى ، ثم « فردة » واحدة من أزرار القميص الرخيصة . . الخ . . فأيقنت أن الخيال قد شطح بالمسكينة شطحة بعيدة ، وأنها مندفعة فى تيار وخيم العاقبة . .

على أن الذى أثار قلقى - جدياً - أن الأنوثة التى أيقظت فى الفتاة عواطفها ، لم ترحمها أيضاً من نزواتها ، فأسلمتها إلى عاصفة من الغيرة الهوجاء كنت ضحيتها أنا ، وكل مريضة أنيقة تدخل عيادتى ، أو قرية تحبى يوماً لزيارتى . . صرت كثيراً ما أفاجئ شبح ليلى وهى ترقبنا بعينيها من وراء خصاص نافذتها المغلقة ، التى

لا يفصلها عن نافذة عيادتي المفتوحة سوى «منور» ضيق . . وذات
يوم جرؤت فسألتني عن إحدى «زائراتي» ومن تكون؟! .. فلم أجد
مفراً من الزعم لها بأنها إحدى قريباتي - لكى لا أثير خيالها البكر! -
فأطرقت برهة ثم قالت ، والحسرة تبلل صوتها : «يا إلهى . . لكم
هى جميلة!». .

. . فوجدتني نهياً لحيرة مريرة ، بين إشفاقى الذى يغرينى
بالتسرية عنها بكلمة إطراء ، وبين خشيتى أن تفسر إطرائى بأنه
استجابة منى لعاطفتها نحوى . . فخرجت من هذا الموقف وقد
ازددت اهتماماً بالبحث عن مخرج سريع من تلك الحال ، ولكن فى
غير عنف يصدم عواطف الفتاة صدمة قاسية !

لكن المحذور قد وقع . . وعلى أسوأ صورة !

اقترب يوم «شم النسيم» ، فاقترح «محسن بك» أن نحتفل به فى
القناطر الخيرية . ورحبت أنا بالفكرة ، بعد أن فهمت أن «عايدة»
ستذهب مع الأسرة - ضمن لفيف من الصديقات - وكانت قد غدت
فى حكم «خطيبتى» ، بعد أن تفاهمنا سراً على الزواج . .

وفى فجر عيد الربيع مضت بنا الباخرة النيلية ، تهدهدها أمواج
النهر الخفيفة اللينة ، وكأنها تعلو وتهبط على خفقات صدر ناهد
لحسناء ، أو جنية من عرائس الماء . . وخلال الطريق اختلست
فرصة انشغال القوم فى لعبة مسلية و«انسرقت» مع عايدة إلى الطرف

الآخر من الباخرة ، حيث انحنينا على الحاجز الحديدى ، نطل على الماء والمروج الخضراء ، ونعب جرعات منعشة من الهواء . . . ولا أدري كيف استخفنتنى عذوبة النسيم ، وجمال الشروق ، فلم أعبا بمن قد يرانا - أولعلنى نسيت أن فى الكون سوانا ! - فضممت خطيبتى إلى صدرى ، وغبنا فى قبلة طويلة . . . قبلة لم أفق منها إلا حين فتحت عينى على نظرة انزعاج مفاجئة ومضت فجأة فى عيني عايذة ، ثم همست لى وهى تنفلت من بين ذراعى : « ليلى قد رأتنا ! » . . . فاستدرت مسرعاً . . . ولكن المسكينة كانت قد توارت ! وكما يحس المجرم الذى ارتكب إثماً ، أحسست أنا يومئذ وأنا أواجه ليلى بعد حين ! - وبخاصة عندما تبينت شدة وقع الصدمة فى نفسها ، والشحوب المخيف الذى اعترأها ! - وطوال اليوم ظل ذلك « الحادث » يلقي ظله الثقيل على ثلاثتنا ، كسحابة قائمة انعقدت فجأة فى الجو ، فكدرت من صفو نزهتنا . وفيما كانت الباخرة عائدة بنا قبيل الغروب ، وأنا مستلق على مقعد طويل ، بمفردى ، لحظت ليلى تحوم حولى ، كالحائرة . . . تقترب خطوات ، ثم تجفل فتقف فى مكانها متظاهرة بالتطلع إلى الماء ، لحظات . . . قبل أن تعود أدراجها إلى الجمع الصاخب . . . وأخيراً حزمت شجاعتها وأقبلت على ، متكلفة ابتسامة خائفة . . . ثم ابتدرتنى بهذا السؤال : « وامتى ح نبارك لك يا دكتور ؟ » . . . فأجبته ، كاذباً ، بأننى لم أفكر فى الأمر جدياً . . . ولكنها لاحقتنى فى إصرار : « إزاي ، دى أبله

عايدة قالت لى دلوقت إن الخطبة بعد أسبوعين ! . . وأسقط فى
يدى ، فلم أجد سوى أن أريت على ذراعها ، مواسياً . . وعندئذ
خانها تجلدها ، فارتعشت شفتاها وهى تنظر إلى بعينين ترطبهما
الدموع . . ثم انطلقت لا تلوى على شيء !

. . ومضى بعد ذلك أسبوع ، لم أرها فيه أويقع بصرى على ظلها
فى البيت ، أو وراء خصاص النافذة - إذ أفلحت فى أن تتجنبنى
وتختفى من محيطى تماماً ! - لكنى كنت أعود أحياناً فى ساعة متأخرة
من الليل فألمح نور غرفتها ما يزال مضاء ، ويخيل إلى أنى أسمع
صوت نشيج مكتوم ! . . على أننى حاولت ألا ألقى بالاً إلى الأمر ،
لا سيما أننى كنت منشغلاً فى إعداد معدات الخطبة . . بل لا أكتمك
أنى نسيت الصبية فى غمار سعادتى بخطيبتى . . فإن السعادة
يا صديقى تجعلنا أنانيين ، وتخلق من قلوبنا أحجاراً أقسى وأصلب
من الصوان !

. . لكن ليلى نجاءتنى أخيراً فى نهاية الأسبوع ، تطرق بابى
لتسألنى أن أحملها معى فى سيارتى إلى شارع فؤاد الأول^(١) ، كى
تبتاع بعض أشياء . . فلم يكذبصرى يقع عليها حتى هالنى
ما أصابها من تحول فى الأسبوع الذى احتجبت به ، فسألتها إن كانت

(١) شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة الآن .

تشكو مرضاً .. لكنها أجابت في صوت خائر : «أبداً ، بس
الامتحان قرب وباسهر كثير في المذاكرة ..» .. وكنت أعلم أنها
تكذب ، لكننى أغضيت ..

ومضت بنا السيارة ، حتى خلفنا شارع الجزيرة العمومى وانحرفنا
إلى طريق الجزيرة الساكن ، فمالت ليلى فى مقعدها إلى الوراء ، وهى
تتمطى وتملأ رثتها من النسيم المعطر .. ثم سألتنى أن أضاعف من
سرعة السيارة كى نستمتع بعذوبة الهواء ، فأجبته إلى طلبها ..
وإنى لأذكر الآن أنى فاجأت عينيها لحظتئذ تحتلسان النظر إلى ،
وفيها نظرة غامضة زائغة لم أعبا بها إذ ذاك ، فقد استغرقنى أريج
الحدائق المجاورة ، فشردت فى أودية الأحلام السعيدة التى كانت
تملأ رأسى .. وفجأة - آه ، إن قلمى ليرتجف الآن وأنا أستعيد ذكرى
تلك اللحظة المشثومة ! - فجأة أحسست بهزة عنيفة .. وإذا بباب
سيارتى المجاور لليلى يتراجع بشدة .. ومقعدها خال منها !

وكان عسيراً على أن أدرك حقيقة ما حدث قبل لحظات خاطفة ،
أوقفت فيها السيارة ثم عدت بها مسرعاً بضعة أمتار .. إلى حيث
كانت ليلى ملقاة على الرصيف الحجري الذى تخبرته لتنفيذ فكرتها
الجنونية ..

وكان الدم ينزف من فمها .. فلم أكد أرفع رأسها فى رفق ، على
ذراعى ، حتى فتحت أجفانها بعد جهد كبير .. فلما رأتنى ،
اغتصبت من قواها الخائرة شبه ابتسامة ، ثم سبحت عيناها فى الدمع

وهي تبذل محاولة يائسة كي تتكلم . . فأدنيت وجهي منها ، وإذا هي
تهمس في حشرجة متقطعة باكية : «مجدى . . قبلنى ، قبله
واحدة . . أخيرة !» . .

فانحنيت بفمى نحوها ، ودموعى تتساقط على وجهها ،
واختلجت شفتاها تحت شفتى اختلاجة قصيرة ، كالطائر
المذبوح . . ثم سكنتا .

وحين عدت إلى سيارتى ، وجدت على مقعدها مظروفاً صغيراً ،
باسمى ، لم أكد أفتحه حتى تساقط منه : منديل حريرى ، وأزرار
قميص ، وأشياء صغيرة أخرى لا أذكرها . ووجدت صورتى
الشمسية المفقودة فى قلب خطاب قصير ، تشرح لى فيه التعمسة كل
شئ !

(٣)

وها أنت ذا ترانى اليوم يا صديقى ، بعد سنوات ، أعيش طاوياً
قلبى على مأساتى الدامية ، زاهداً فى أن أفتحه لحب جديد . . أو
لعلنى عاجز - بعد أن خربت عاطفة ليل - عن هضم العواطف
الرخيصة التى أصادفها فى غيرها من النساء .

أما عايده ، فقد كان ذلك الحادث آخر ما بينى وبينها . .
لا لذنوب جنته ، وإنما لفرط احساسى بأن أخذوداً عميقاً قد فغرفاه

فجأة بين أقدامنا ، ففصل بيتنا إلى الأبد ! .. أخذوداً من التشاؤم
المخيف الذى كان يجعلنى أجفل وأتراجع كلما هممت بأن أعبر إلى
سعادتى فوق جثة ضعيتى .. التى أحبتنى ، وماتت من أجلى ..
ذات ربيع !

نعم .. «ذات ربيع» .. فلن أنسى ما حييت أن هذا الأثم هو
المستول عن كل ما حدث .. هو الذى فضّ بأنامله الرقيقة غلاف
قلب الصبية ، وسكب فيه سمه للزعاف : أحلامه ، وأهواءه ،
ونجواه .. وهو الذى سرق من أجفانها النعاس ، ومن وجنتيها
الحمرة ، ومن ثغرها دمه !

فحيثما صادفت يا صديقى عذارى شاحبات ، ذوات عيون
ذابلة ، فاعلم أن ساحر الطبيعة قد مسهن بعصاه .. فخلف فى كل
قلب جرحاً ، وفى كل عين دمعاً ، وفى كل فم مرأ .. وفى كل نفس
صداه !

وحيثما صادفت ربيعاً ، يشيع فى الكون شذاه ، وينثر الطعم
لضحاياها .. فلا تنس أن توصيه بهن .. قل له أن يترفق ..
بالقلوب الغضة !

(مارس ١٩٤٧)

الرد خالص

(١)

جلست تداعب كلبها الأبيض الصغير ، وجلس هو إلى جوارها
يداعب بمنديله حبات العرق المتساقطة من وجهه . .
كان كلاهما ينتظرالقطار الذى يقلُّه من محطة « كوبرى الليمون »
إلى منزله . .

وجمع بينهما ملل الانتظار ، وخفة الكلب الجميل الذى مرق من
بين يديها فقفز إلى جانبه ، ومضى يحيه على طريقته الخاصة . .
بنهش ملابسه ! .

انتهرته صاحبه ، دون جدوى . . فلم تر بدءاً من أخذه بين
ذراعيها ، والاعتذار إلى جوارها بكلمات رقيقة موجزة ، كانت كافية
لأن تطلق لسانه برد لبق . . وعندما أقبل القطار الذى سيركبانه ،
كان قد عرف اسم كلبها «نوسى» . . وعرفت هى أن الجو حار !
سارا معاً متجهين نحو القطار ، وكل منهما ينوى أن يحتل مقعداً
فى عربة الدرجة الأولى ، متناسين «أبونيهى السكندو» اللذين
يدفئان جيه وحقيبتها . .

وفى القطار جلسا فى مقعدين متقابلين . . قدم لها أقراص

النعناع ، فتناولت منها شاكراً . . وانقضت فترة صمت ، أنهاها هو بكلمة أبدى فيها إعجابه بـ «البارقان» الذى ينبعث منها فيعطر مزاجه ، متسائلاً عن نوع الزهرة التى قطر منها العطر . . فأجابت فى اقتضاب : «لافاند» (Lavande) !

ثم تطرق به الإعجاب إلى . . لون عينيها الفاحم . . فشعرها المتهدل الجميل . . فأنفها الدقيق . . ففمها القرمزى ، الذى خلق ليرشق بالقبل !

. . وإزاء إصراره ، تشعبت بينها الأحاديث . . وتبدلت ، بعد حين ، الضحكات . . يطلقها هو قصيرة خافتة ، وتهمس هى بها رقيقة واهنة ، ثم تقطعها بالضغط على شفتيها فى هدوء . .

وحين مر القطار على الحدائق الجميلة التى تترامى عند أعتاب الطريق ، ذكرته أشجار السرو العالية بما رآه فى إحدى ضواحي أثينا . . وذكرتها برحلتها القصيرة إلى (بور توفيق) . .

ونبتت فى ذهن كليهما فكرة كافية عن الآخر : عرفت منه أنه مهندس بإحدى شركات البناء التى احتكرت مبانى بعض المناطق بالزمالك ، وأنه يعيش وحيداً فى مسكن صغير بإحدى عمارات المطرية . . وعرف هو منها أنها تقطن مع والدتها وأخواتها «فيلا» كبيرة خلفها والدها للأسرة قرب محطة «عين شمس» . .

. . وأما هو فيميل إلى لون ثوبها «السيكلامان» الفاتح ، ويفضل من كواكب السينما «ريتسا هيوارت» . . وهى ، تحب من الألوان

الأزرق القاتم ، ومن الممثلين «تايرون باور» ..
وبعد إلحاح منه ، اتفقا على حضور فيلم «محايد» لنجوم
آخرين .. وقبل أن يفترقا ، كانت الكلفة بينهما قد زالت .. وغادر
«رشدى» القطار في المطرية ، تاركاً «رثيفة» تواصل رحلتها إلى عين
شمس ..

وفي القطار العائد إلى (كوبرى الليمون) بعد نصف ساعة ،
جلس كل منهما في إحدى عربات الدرجة «الثانية» ، في الطريق إلى
بيتيهما : هو في الزيتون ، وهى في كوبرى القبة !
وكان من حسن الحظ أن لم يلتقيا !

وحين وصل إلى منزله ، واستقبله كلب الجيران بالنباح ، لم
يزجره كعادته .. بل غالى في ملاطفته .. فقد أحس لأول مرة
بفوائد الكلاب !

(٢)

يا لعبث الرجال .. يعمد الواحد منهم إلى إغراء المرأة ، والتماس
رفقتها في الملامى والنزهات ، كى يقضى معها وقتاً طيباً ، ويغرق في
حنانها ما بنفسه من الضيق والسأم ، غير عابىء بما يكون من أمرها
حين يتركها - وقد استطالت في التعريض بها الألسنة - ليتزوج من
إحدى «بنات البيوتات» ، مسكتاً ضميره بالادعاء أن كرامته تأبى
عليه الزواج من فتاة سمحت له أن يتعرف بها .. «في الطريق» !

وهكذا ، ما كانت العلاقة التي أغرى رشدى الفتاة على الرضا بها
لتحتمل فى عرفه أن تنتهى إلى زواج . . لكنه حين أوى إلى فراشه
عصر ذلك اليوم ، كان يمنى نفسه باللحظات السعيدة التي
سيقضيها مع فتاته ، يتسامران ويضحكان . . حتى تحن الشفاء إلى
الشفاء ، فيغوص العفاف إلى بطون الأقدام ، لتطفو القلوب
النشوى فوق الرؤوس التي أسكرها اللهو ، وأطاح بها الاستهتار . .

وفى المساء ، التقيا فى إحدى حدائق السينما الصيفية ، وكانت
تعرض فيلماً هزلياً ممتازاً ، أشفق النظارة على بطلته التي «نكبتها»
الدهر بعودة زوجها الذي حسبته قد مات ، بعد أن تزوجت من
صديق له . . فحيرتها المفاضلة بين «زوجيها» !

ضحكت رثيفة ، وأطاحت برأسها إلى الوراء فى بساطة مرحة . .
أما هو فلم يضحك ، لأنه كان أبعد ما يكون عن الشاشة ، لا يرى
إلا بشرة وجهها الناصعة . . ولا يحس إلا بذلك الإحساس الغريب
الذى شمل كيانه كله ، حين تطاير شعرها المتماوج الطويل فلمس
عنقه ، لمسة خفيفة لينة !

وعند القطار ، افترقا فى ذلك المساء ، ليلتقيا فى أمسيات تالية
عديدة ، لم يبخلا فيها بخلواتهما على مكان . وفى كل مرة كانت تقترح
عليه أن يفترقا هكذا فى (كوبرى الليمون) ، «لئلا يراها أحد
بصحبتة» . . فكان هو يوافقها على الفور ، كى لا تتكرر مأساة

الوصول إلى المطرية ، والعودة في القطار التالى إلى الزيتون .
.. وهو لا يدري أنها قد تورطت يوم ذكرت «عين شمس» كما
تورط هو ، رغبة منها فى إطالة الطريق ، وإفساح الفرصة
للتعارف .. والتواعد على لقاء .

(٣)

.. وبدأ يحس ، مع مرور الأيام ، بالشوق يلهب كيانه ..
الشوق إلى امتلاك هذه المخلوقة الناعمة ، التى تبعث الرجفة والنشوة
فى بدنه كلما تلامسا ، عفواً ، أو عن قصد مستور .. وهو الذى ألف
تلك اللمسات والخلوات من قبل ، فلم يعهد فى نفسه يوماً أدنى تردد
أو إجفال .

.. وبدأت عيناها هى تسيلان رقة وحناناً ، ونظراتها تزداد ليونة
وشروداً .. كان من الواضح أن عاطفة قوية قد قيدتها ، فلم يعد
هو يستطيع منها فراراً ، ولم يرد لها ضعفها منها فكاكاً .. فأثر كل
منهما - وقد لبس فى نفسه حائلاً خفى على الآخر ، يباعد بينه وبين
صاحبه - أن ينطوى على روحه يغالبها فى سكون .

وفى خلوة حاملة فى المعادى ، فى ذلك الكازينو المطل على النيل ،
جلسا ذات أمسية متلاصقين ، صامتين ، يرقبان ماءه الأسمر
العذب ينساب هكذا فى عروق الأجيال ، فى هدوء .. وسخاء .
ومن بعيد ، حمل إليهما الهواء أصوات الصيادين وقد جلسوا فى

قاربهم يرددون برنتهم الفطرية الرخيمة أغنية « عبد الوهاب »
القديمة العذبة :

امتى الزمان يسمع يا جميل
واسهر معاك على شط النيل

القمر طال علىنا
والعذول غاب عن عينا

والدنيا كلها حاسدانا

والنسمة كانت حيرانة

والموج يحكى حكاية
للشط ما لها نهاية

يا هل ترى يا زمائى
حاسهر مع الحلوتانى

واسهر معاك ولا فيش عزول
واسمع غناك والليل يطول

وانا والجميل قاعدين
سوا على شط النيل

.. ثم خفت أصواتهم ، وابتعد قاربهم فى الظلام ، تاركاً
العاشقين يصارعان فى قلبيهما الأمواج التى انحسرت عنها غمرة
الخيال ..

.. وانحنى على خدها ، فأجفلت قليلا ، ولكنها لم تمنع ..
ومضيا يتراشقان بالقبل ، حارة شهية ، حتى عادا إلى نفسيهما فغادرا
المكان ..

وفي بيته ، ارتضى هو على الفراش مسهداً ، يتنازعه الحنين
إليها .. والإشفاق من أن يدنس محرابها .. وفي الصباح ، كان قد
اعتزم الابتعاد عن طريقهما مهما كلفه الأمر !
وعندما وضع سماعة التليفون ، قبل أن يسمع ردها ، كان قد
صارحها بحذره من التماهى فى العلاقات بينهما ، معتذراً عن الزواج
بأنه .. ليس أهلاً لها !
وأحس براحة خفية ، فقد كان مخلصاً فى قوله !

(٤)

ومضت أيام ، خرجت بعدها «رثيفة» مع صديقة لها كانت تنوى
السفر إلى الخارج ، للحاق بزوجها الذى أرسلته الحكومة فى بعثة
دراسية ، كى تقضى معه شهراً فى أوروبا قبل عودته ..
واقترحت عليها الصديقة أن يمرا على أحد مكاتب السياحة التى
ازدحم بها شارع عبد الخالق ثروت ، فدخلا .. وطلبت الزوجة
بعض الاستعلامات من الموظف المختص .. ولكنه لم يعبأ بطلبها ،
بل ظل يحدق فى زميلتها «رثيفة» !
.. تحولت إليها الصديقة لترى ما دهاه ، فرأتها هى الأخرى

تحديق فيه ، وابتسامة تتلاعب على شفيتها . . إنها تود أن تصارحه
بأمرهم ، لكنها تسكت على مضض ، والحجل يمسح ابتسامتها !
واستدار رشدى بعد لحظة ليلبي طلب الزوجة المسافرة ، فلمحت
هذه على وجهه . . حبات من العرق !
وحين خرج من مكتب السياحة بعد برهة ، أحس بالسنة الهواء
تمتد نحوه لاذعة ساخرة !

(٥)

ومضى صاحبنا فى اليوم التالى إلى أحد محال الروائح العطرية فى
شارع قصر النيل ، لىبتاع زجاجة من «البارفان» الذى تتعطر به
فاتنته ، عله يعالج الشوق الذى أضناه . .
لكنه لم يكذب تقدم فى داخل المحل خطوة ، حتى توقف فى
مكانه ، وكأن الأرض قد شلت قدميه . . فإن البائعة لم تكن غريبة
عنه . .

إذن فهى ليست من وارثات (عين شمس) !
وهو . . ليس من مهندسى شركة المبانى !
وكان لقاؤهما التالى على مرأى ومسمع من المأذون والشهود !

(سبتمبر ١٩٤٠)

السراب

(قصة فى حوار)

(رأس البر) ، قبيل الغروب . . . واللسان ، ممتد فى الماء منذ بعيد ، يتلقى من اليسار لطحات البحر ، ومن اليمين لثامات النيل . . . حتى يبلغا آخره فيلتقيان !
والأمواج مقبلة تتدافع وتتواكب ، ثم تنكسر على الأحجار ، فتشر رشاشها البارد على وجهين :
هى ، وهو ، واقفان ، على طرف اللسان ، كأنها هو يوشك أن ويلفظهما إلى الخضم !

بعد فترة سكون :

هى : (فى تيهب ، وبصرها إلى أسفل) : أما فرغت من تأملاتك . . . لكى نعود ؟
هو : (وبصره إلى الأفق البعيد ، كالحالم) : هه ؟ . . .
نعود ؟ : وفيه العجالة ؟
هى : (تبتسم له) : ألم يقل إنك تخشى مرآها
وهى تغرب ؟ ترى ما منبع هذه الخرافة ؟

هو : (أله قلبى) : إنى يحدثنى بأن أجدادنا الفراعنة القدماء لم يكونوا مخطئين حين تشاءموا من التطلع نحو الغرب ، فولوا وجوههم فى جميع فتوحاتهم نحو الشرق . . . كان الغروب فى عرفهم نذيراً بالنهاية الأخيرة أو مرادفاً للفناء . . . انظري . . . الأتريين الشمسيين

وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة ، ووجهها محترق - أشبه بعذراء تحتضر :
رأسها ملقى على وسادة من السحاب الأحمر ، وأطرافها مسجاة على
الأمواج ؟ .. ها هي ذى تغيض رويداً رويداً .. ها هي عذراء
الوجود قد ماتت .. (كمن يحدث نفسه ، فى سخرية) : ثم
يتحدث الناس عن «جمال الطبيعة» .. هه .. إن هو إلا وهم من
خيال الشعراء ..

هي : وبالأمس فقط كنت تتغنى به .. يا للبصر من مرآة
خادعة ، تعكس الإحساسات قبل المراثيات .. إنك الليلة لا ترى
الجمال ، لأن نفسك معتمة . دع عنك هذه الخواطر السوداء . (يرق
صوتها) هلا اخترت غيرها للقائنا .. الأخير ؟

هو : (فى مرارة) : كأنها يهملك أن يكون الأخير أو لا يكون ..
(يلمح فى عينيها نظرة تجيش لها نفسه .. فيستدير إليها ، ويقبض
على ذراعيها بقوة) سعاد .. لماذا وضعتك الأقدار فى طريقى ،
ما دامت تنوى أن تعود فتأخذك ؟ (وهو يخفف من قبضته ، ويرق
صوته) ولكن .. أى حق لى فى أن أزجرك .. ؟ قلبى هو الأحق
بالزجر .. فإنها غلطته ..

هي : (فى هدوء) : بودى لو أذكرك بهذا .. غداً ، حين
تسأنى !

هو : كيف أنسى أحلامي الهائلة بين أجفانك ؟ دعيني أطيل
النظر فى عينيك . ما لها تهربان من عيني ، وأهدابها تختلج ،

ككتاب يقلب الهواء العابت صفحاته ، أو شريط تتحرك صورته في
سرعة تحطف الأبصار ؟ .. أوصيهما أن يتمهلا ، كي أقرأ فيهما
صحائف حبي ، وأتملى برؤاى الجميلة . أى نوع من المرايا
حدقتاك ؟ منذ عرفتكما أحييت الظلام ، كي أراهما تلمعان لى
وحدى ، فترسم على صقالهما أوهامى السعيدة . كم من ليال
قضيتها ساهراً فى شرفتى المظلة على البحر ، أتلقى هواءه الرطب على
جبينى ، فى نشوة المحموم ، وأنصت لهمسه الخلو فى أذنى ، فأحس
بمثل اصطفاق الأمواج فى رثتى ، وكأن قلبى طائر حبس يرف بين
قضبان صدرى ، ييغى الفرار ! ؟ .. وكم من ليال سهرت فيها أذرع
السما ببصرى ، وأرصد عينيك وهما تثقبان الظلام ، وتيران أمامى
الطريق ! ؟ .. سعاد .. محال أن يكون عمر هوانا ثلاثة أسابيع .
لكأننى عرفتك منذ دهور .. عرفتك قبل أن ألقاك !

هى : (ترمى ببصرها إلى البحر ، فى شرود) . أكل هذا ،
بسببى ؟

هو : أو تجهلين ؟ إنك أول امرأة تنسى غرورها ! (بعد
لحظات ، فى صوت آتٍ من بعيد) . . كما كنت أول امرأة نسيت
فضولها ! .. منذ لقائنا الأول توقعت أن تسألينى عن ماضى قلبى ،
عن تلك التى كانت تقطنه قبلك ، لكنك لزممت الصمت .. وكان
هذا كل ما أرجو .. كنت أشفق من أن تذكرينى بها فى البداية ،
وتلجئينى إلى أن أفتح لك قلبى وهى ما زالت فيه .. فتقابلان على

عتبه . . وأفقدكما معا . . ولكم أضنتى حيرتى وأرهقنى ضميرى ،
وأنا أهيم نفسى لذلك الموقف الأليم ، لولا أن أنقذنى صمتك ،
وتكفل بإيجاد الحل : أتاح لى الفرصة كى أتبين موقفى على مهل ،
فلم ألبث أن أيقنت أنك قد ربحت المعركة ، وأفلحت فى إبعاد
« ليل » من قلبى . وهكذا ، عندما فتحت لك ، لم تكن هى فيه .
كانت المسكينة قد تسللت منه تحت جناح الظلام وهى تكتفكف
دمعها . . (فى صوت خفيض) ولكن ، ها هو ذا إثمى قد حاق
بى ، وحق على التكفير !

هى : (كمن تخفى سرّاً) : لم يفت الأوان . عدنى أن تعود
إليها ، فهى لابد تنتظرك . . إنها لا تعلم شيئاً !
هو : لا أكذبك : لن أستطيع . . بعد أن عرفت فى حبك
حرارة الانفعال ، لن أطيق صقيع الحب الهادى الذى أحبتها إياه .
تريدين أن تعرفى مدى العاصفة التى أثرتها فى كيانى ؟ إذن
فانظرى . . أترين هدوء النيل ؟ . . هكذا كنت . . وهياج
البحر ؟ . . هكذا صرت . . (كمن يتنبه إلى نفسه) والآن حدثينى
عن . . غريمى . . فلکم يشوقنى أن أعرفه . .

هى : (بعد فترة صمت) : مختار . . هوّن على نفسك .
ما هكذا يكون . .

هو : (مقاطعاً ، فى تهكم مرير) : ما هكذا يكون لقاء
المحبين ؟ نعم . . إنك محقة ، فاغفرى لى أننى أثقلت عليك (وهو

يتطلع إلى بعيد ، كمن يحدث نفسه) . . وإن يكن شفيعى أننى
أتشبت بهنائى الغارب ، وأدفع عنه عدوان الأقدار - خصمى
العنيد ! - فالحرب بيننا سجال !

هى : (تلمع فى عينيها دمعتان) : كلا . لا تخطىء وتظلم
الأقدار ، فالذنب ليس ذنبها . . بل ذنبى أنا . . أنا الجديرة بحقدك
وبغضك . . أنا التى اعترضت طريقك ، عامدة . . ولكم كنت
حقاء . . (كمن تتهياً لحديث طويل) مختار . . لقد كذبت عليك
حين أخبرتك أن قريباً لى قد خطبنى من أبى أمس ، وأننى مقبلة على
الزواج . كلا ، لم يحدث من ذلك شىء ، فإننى أنصرف الآن من
حياتك بمحض رغبتى . . دعنى أعترف لك بالحقيقة كاملة . أعلم
أننى سأؤلمك ، وسأدمى كبرياءك ، لكنك ستشفى من حبى حين
تعلم كم أثمت فى حقك . . وفى حق « ليلى » . . إنك تجهل أننى
أعرفها ، فكيف لو علمت أننا ألصق صديقتين . . ؟ . . منذ
تعارفنا ، وتفتحت بصيرتنا على الحياة ، مضينا معاً ، نتساررونبحث
عن الأحلام التى تراود أذهان الفتيات . لم تكن تلك الأحلام غير
شتيت من الرؤى الزاهية والخيالات ، تحوم دائماً حول دنيا الرجال :
القلعة الشائقة ذات الأسرار ، التى لم نكن قد اقتحمناها بعد ،
والتى سبقتنى « ليلى » إليها حين قدر لها أن تلتقى بك ، فدخلتها
معك . . وتركتنى بمفردى أواصل طوافى العقيم ! . . وبين حين
وحين ، وكلما أرهقتها سعادتها معك ، كانت تلقانى كى تحدثنى عن

نعيم الحب ، وما يدور داخل أسوار دنها الجديدة ! . . وذات يوم
أرتنى صورتك . لم أعرك في البداية أدنى اهتمام ، ولا أثارت الصورة
في نفسى نحوك أى إحساس خاص ، غير مضاعفة شعورى بالحياة
الموحشة التى أحيها . . لولا أن تكاثرت أحاديث «ليلى» عنك ، عن
عينيك اللتين كأنهما تنطويان على ألم دفين . وعن نظراتك إليها ،
ونجواك وهمساتك ، وحركاتك وسكناتك . . صارت تطلعنى على
كل ما يدور بينكما ، ولا تخفى عنى شيئاً . . !

. . فبدأ يدب فى أعماقى شعور عجيب قاهر ، يدفعنى دفعا إلى
محاولة رؤيتك . شعور زعمت لنفسى في البداية أنه فضول برىء ،
لا يخفى أية نوايا مغرضة . . حتى أظهرت الشهور التالية مشاعرى
سافرة أمامى ، فتبينت فيها ما كنت أخشاه ، ما كان يحتاج كيانى من
شوق مدمر إلى أن أعرفك ، وأجرب معك سائر الانفعالات التى
صارت ترهق خيالى ، حتى لكأنك تغرينى أحيانا بأن أغافل «ليلى»
فاتناول صورتك وأمضى أمنى نفسى بكل ما شاقنى فيك خلال
أحاديثها الطويلة عنك . . وأحلم بأن تختصنى عيناك بنظراتها
الحزينة ، وتريق شفتاك فى سمعى همساتك الرقيقة ، وأنت تضغط
على ذراعى بأناملك . .

وهكذا مضى زمن ، وأنا أعيش فى جنة من صنع أوهامى !
. . إلى أن حانت فرصتى المنشودة . علمت من «ليلى» أنك قادم
كى تقضى شهراً هنا ، عقب جفاء عارض بينكما ، فعجلت

بالحضور مع أسرتى . . فى أثرك . . ورحلت أتعتبك ، فى الصباح
على شاطئ البحر ، وفى المساء بين مقاهى النيل - إذ كان من حظى
أن المصيف صغير ، والملاهى فيه محدودة - فصرت ترانى أمامك أينما
سرت ، وحول المائدة المجاورة حيثما جلست ، وصار كل همى أن
ألفتك إلى نفسى ، وأبدو جميلة فى عينيك . . حتى سمعتك ذات يوم
تهمس لشخص معك عن « هذه الحسناء ذات البيجاما الزرقاء » ،
. . فأدركت أنك تعينى ، وكدت أشهق من فرحتى . . وعندما
خدمتنى المصادفة وعشرت على قريب لى يعرفك ، ثم جمعتنا فى
الكازينو مائدة واحدة ، كانت المسافة بين قلبينا قد قربت . . ولم يعد
يفصلنا غير عائق واحد : « ليلى » . . آه لو علمت المسكينة أنها هى
التي ساقتنى إليك ، دون أن تشعر .

. . لكنى لم أتعب فى إخماد ضميرى : أوهمته أن الجفاء الذى
بينك وبين « ليلى » عتيد أن يصرفك عنها إلى غيرها ، وأنى أولى
بحبك من الآخرين . بل ذهبت إلى أبعد من ذلك . . إلى حد
إقناعه بأنى إنما أدخل حياتك برا بك ، لكى أطرد الشجن من
عينيك ، وأمنحك السعادة التى عجزت هى عن منحك إياها . .
وصدقنى ضميرى ، أو تظاهر بتصديقى ، فلم يبق إلا ضميرك . .
وكنت واثقة أن مجرد معرفتك بعمدى صلتى بـ « ليلى » ، كفيلة بأن
تجعلك تعرض عنى من البداية ، وتبعدنى عن طريقك ، بركلة من
قلبك . . فلم أربداً من أن أتسلل إلى حياتك فى ثيابى التنكرية . .

.. وأنت تعرف البقية : لم تنجح التجربة .. حين ظفرت بك ، أحسست بانفعال السائح إذ يضع قدمه فوق أرض جديدة ، يهزه الشوق إلى أن يجوها ، ويدفعه الفضول إلى رؤية كل مافيها .. ثم .. ينتهى كل شيء !

وهكذا لم تمض على أيام حتى استعدت توازنى ، وأفقت من ترنح سكرتى ، فرأيت كم أضلنى قلبى - هذا النبى الكاذب - حين قادنى وراءه ، معصوبة العينين .. وإن كنت قد غنمت من رحلتى تذكاراتاً ثميناً ، منحتنى إياه الحياة وهى تفضى إلى بسرها . لن أنسى صوتها وهو يهمس لى فى فحيح مخيف : «ما من أمل فى الوجود يساوى - عند تحققه - نصف عناء الوصول إليه .. ولا من متعة تستحق - بعد بلوغها - حمى الشوق إليها ..» .

هو : (فى لهجة رثاء) : هنا تبدأ تعاستك . كان خير لك أن يبقى إيمانك بالسعادة ، فيشعل فىك حرارة الحياة ، من أن تفقدى هذا الإيمان فيغمر حياتك الصقيع .. ولخير لك أن تظل آمالك دائماً تسبقك ، لا تبلغينها .. من أن تبلغينها فتتكشف لك عن هباء ! .. كما حدث يوماً لى (يبدو الشجن فى عينيه ، ثم يتمالك نفسه) .. والآن دعينى أنوب عنك فأكمل القصة ، فلربما يصعب عليك مواجهتى بالبقية : لقد مضيت تجترين أحلامك ، وخیالك يصور لك اللوحة رائعة من بعيد ، فلما فتحت عليها عينيك ، عن قرب ، لم ترى غير لطح من الألوان - لا معنى لها - هى دون ما عشت شهوراً

تتخيلين . . فانطفأ حبك لى ، أصبت بخيبة أمل . . والقلعة التى
طالما حمت حولها ، وحلمت بأن تغنمها ، بدت لك - حين دخلتها -
أطلالاً خاوية ، مكسوة بطلاء براق !

هى : ككل أمانينا!

هو : نعم ، فإننى لم أكن فى دنياك غير وهم كبير ! (وهو يمد
بصره إلى أفق سحيق) . . أولمعة سراب !

(سبتمبر ١٩٤٤)

قبض الريح !

(١)

فى ركن من مقهى الـ «تريانو» ، والى جوار نافذة مفتوحة على الميدان المشرف على البحر ، رأته ساعة الأصيل جالساً إلى إحدى الموائد ، وأمامه قدح من الشاي . . لم يمسه !
لم يكن جو المكان هادئاً يغرى بتأمل طويل . . فقد كانت الجلبة شديدة فى الداخل ، والميدان فى الخارج زاخراً بالحياة . . كالقلب النابض ، فيه تتلاقى ومنه تتفرق جموع الساعين إلى مغانى الإسكندرية فى يوم العيد . . وبرغم ذلك فقد بدا على «خيرى بك» أنه غير ملق بالأى إلى كل ما حوله من ضجيج ، وكأن نفسه تنعم بسكينة محبة ، مبعثها الاستغراق فى ذكرى . . أو نجوى . . أو حنين !

وآثرت أن أحترم عزلته فأدعه لنفسه ، حتى يفىق . . مكتفياً خلال ذلك بمراقبته من بعيد . كان المشيب مهيباً فى طلعه وجلسته ، كأروع ما تكون المهابة والجلال . . وعلى شفثيه يرف شبح ابتسامة قاتمة . وفى نظرات عينيه رقة لم ألفها ، وليونة طارئة . . حرت فى تعليلها !

.. حتى أفاق من سرحته بعد حين ، وكنت قد فرغت من تناول
الشاي ، فسرت بين الموائد أسمى إليه ..

واقترح على أن نفر من الزحام والضجيج - بعد أن تنبه إليهما -
فخرجنا إلى طريق الكورنيش ..

كان الغروب جميلاً يرهف الإحساس ، والهواء صافياً ندياً يرطب
الوجوه .. وكل شيء يذكر بأحلى أمسيات «نوفمبر» في الثغر ،
حين يجود الخريف بأنفاسه الأخيرة فتشيع روائحه في الجو ، ريانة
بأنفاس البحر ، ظمآنة لأنفاس الزهر .. وتنتشر باقات
«الكريزنتيم» بألوانها الزاهية : في أيدي الباعة ، وواجهات
الحوانيت ، ونوافذ المنازل ، وعلى موائد المقاهي والحانات .. وحيثما
طاف البصر أو استقر .

وكانت الإسكندرية قد خرجت إلى الطرقات ، جذلة بالعيد ،
الذي استرد بهجته القديمة .. فلم يعد مجرد تاريخ يقرأ في
التقاويم ، وتعطل له الأعمال .. وإنما لاح على وجوه المارة ، وفي
عيون الأطفال .

وسرنا برهة صامتين ، وقد تجنبنا مبادأته بالكلام ، حين لمحت
على وجهه تعبيراً تعودته منه كلما أغرته فورة الماضي في رأسه بأن
يفضي إلى بذات نفسه ..

وصدق ظني .. إذ لم نكد نبتعد عن قلب المدينة ، ويخلو

الكورنيش إلا من نفر قليل ، حتى جاءنى صوته هادئاً يقول :
« ليتك بكرت فى الحضور قليلا . . إذن لرأيت ابنى « منير » كما
رأيتة أنا ، يعبر الميدان وذراعه فى ذراع فتاة . . ألا ما أسرع ما تمر
الأيام ، بله الأجيال . . وما أسرع ما بدأ الفتى يبحث عن الحب ،
ويخلى مكان الصدارة من قلبه للحسان . . ولكم أخشى على هذا
القلب الغض من عبثهن . . إنها تجربته الأولى فيها أحسب .
وصدقنى إننى حين لمحتة ، شخت فى عين نفسى - فى لحظة واحدة -
سنوات . . وقدرت فجأة بُعد الشقة ، وعمق الهوة ، بينى وبين
ماضى السحيق . . وتمثل لخاطرى شبابى مُعاداً من جديد . .
فدهمنى طيف الفتاة الأولى التى فضت غلاف قلبى البكر . . وعبثت
به . . ثم نبذته . .

« وإنى لأقرأ الآن فيه ، وفى رأسى معاً ، قصة حبنى الأول . . »
ولان صوته ، كما لانت نظراته من قبل ، واتخذ سمة البحر
الساجى ، الذى لم تعد تعكره الأمواج :

(٢)

« كان ذلك فى فجر شبابى الباكر البعيد ، يوم أن كنت فتى يافعاً
لم أكمل دراستى بعد . وكنت ووالدتى قد انتقلنا حديثاً إلى
الإسكندرية ، واخترنا لسكننا - فى أحد شوارع (زيزينيا) الهادئة -
شقة فى عمارة جميلة ، مازلت أذكر لون طلائها الأحمر ، ونوافذها

العالية الدكناء ، ومدخلها الرخامى الفسيح الذى يتضاءل إلى جانبه
مدخل العمارة العتيقة التى كنا نقطنها قبلاً فى (جرجا) . .
«لم تكن الصورة التى فى ذهنى يومئذ عن الحب والنساء ، أكثر
من خليط مبهم من التصورات ، ساهم فى رسمها خيالى الجامح . .
وهمسات زملائى من التلاميذ الكبار . . ثم ذلك الضرب من البلبلة
«العذبة المرة» التى تداهم أفكارنا بشدة وتنتهينا فى تلك السن ،
حين تتمطى قلوبنا فى صدورنا وهى تستيقظ كى تؤرق ليلينا ،
وتلهب فى نفوسنا أقوى مشاعر القلق . . والحيرة . . وانتظار
المجهول . .

«المجهول الذى لم يلبث أن وعدنى به ، وقادنى عبره . . طيف
«إحسان» !

«لا أذكر أين ولا كيف رأيتها أول مرة - أو حتى عاشر مرة - فقد
كنت فى البداية أراها كثيراً ، تقريباً كل يوم ، إما صاعدة إلى مسكنها
فى الطابق العلوى من عمارتنا ، أو هابطة منه . . وأحسب أننى لابد
قد صادفتها مرة أو مرتين مع أمها عندنا فى البيت ، فكنت أخضع
لواجب مصافحتها تأديباً واضطراباً . . ثم أبادر بالخروج إلى الشرفة
المطلّة على الشارع الرئيسى ، لأملأ رئتى بهواء نوفمبر الندى ، وأقف
أرقب الطريق الزاخر بالفتيات الجميلات وهن عائدات من المدارس
بأرديتهن المتماثلة ، البيضاء أو الزرقاء ، وعلى وجوههن ملاحاة الصبا
ونضارة الشباب المضطرم الذى يلون وجناتهن . . وقد تناثر شعرهن

على أكتافهن في استرسال عذب ، نصفه من فعل عبث الهواء ،
ونصفه من فعل عبثهن في المدرسة . .

« فكان يتولاني وأنا أرقبهن شعور غريب . . كنت أحس بحيرة
خفية ، وقلق غامض . . وكأننى مخلوق غريب عن هذه الدنيا ،
مقيد فى قفص ، يمر أمامى موكب الحياة وأنا قانع بأن أستعرضه . .
أو أدعه يتفرج علىّ فى وقفتى تلك . . وأنا تائه النظرات ، حالم
الشفيتين بشيء لم أكن قد تبينته بالضبط . .

« واستدعتنى أمى ذات يوم من وقفتى تلك لأجلس مع
« الضيوف » . . فمضيت إلى الغرفة كاسف البال ، ضيق الصدر ،
وفى نيتى أن أتحن أقرب فرصة للفرار . وجاءت جلستى فى مواجهة
« إحسان » . . وبرغمى حانت منى إليها لفظة عابرة ، فإذا بى
أفاجىء نظراتها مصوبة إلىّ . . نعم « مصوبة » . . فقد كانت
لحظتها تقدح بفتنة غريبة لم ألمحها فيها من قبل . .

« وخجلت . . فأرخيت عينى فى اضطراب ، متلفتاً إلى . .
لا شيء . ثم عدت ببصرى إليها بعد حين ، عن غير قصد ، فإذا
به يصطدم فى عينيها بنفس النظرة التى كانت تتفحصنى ما تزال . .
« ولا أنسى الارتباك الذى تولانى إذ ذاك . . أحسست أن شعاع
نظرتها الفاحصة ينفذ إلى أحشائى ، ويجردنى من كل ما يستر كيانى
ومشاعرى . . ووجدتنى أسائل نفسى ، كمن أزيح عن عينيه فجأة
الحجاب : « كيف لم ألفت إليها من قبل ؟ » . . وانتهزت أول فرصة

انشغلت فيها « إحصان » بالحديث مع أمى ، فخالستها النظر ،
لأعرف جواب تساؤلى . .

« ولحظتها فقط أدركت السبب . . حين طالعت عيناي فى
وجهها ، وفى جسدها العارم الطويل ، أن سنها تدور حول
العشرين . . وأنها تكبرنى بسنوات . .

« وأكثر « إحصان » من زيارتنا بعد ذلك . . كانت تتعلل بشتى
المعاذير كى تمر علينا ، تقريباً كل يوم ، ولو فى إلمامة خاطفة ، فتطلب
من أمى شيئاً أو ترد شيئاً كانت قد أخذته . . ولاحظت أنها فى كل
مرة كانت تزيد من حرارة تحيتها لى ، وتلمس أوهى سبب لتبادلنى
حديثاً قصيراً عن المدرسة ، والدروس ، ومدى تقدمى فى اللغة
الفرنسية التى كانت هى تتقنها كإحدى بناتها . ثم ما لبثت أحاديثها
وأسئلتها أن تطورت ، وتنوعت ، ووجدت لها ميداناً ثانياً فى قصة
للكتاب الفرنسى « فيكتور مرجير » أعطيتها لأقرأها ، على أن
تمتحننى فى فصل منها كل مرة ، بدعوى أن ذلك « يقوينى فى اللغة »
وصارت مع الأيام تجلس إلى جانبى ، فتلفح أنفاسها وجهى ،
ويطغى عطرها على حسى . . فأضطرب ، وأنصرف لحظة عن
الكتاب . . وعندئذ تسألنى ضاحكة : « هيه . . خبرى . . فى أى
واد أنت ؟ » . . فكنت أخفض وجهى إلى الكتاب ، ولا أجيب . .

« ولم أتبين مدى التبذل الذى أصابنى ، بالتدريج ، إلا بعد
زمن . . يوم أن كنت أقلب صفحات ذلك الكتاب الذى كانت

بعض فصوله الجديدة على تثير في الاضطراب . . فصادفت كلمة
استعصى معناها على فهمي ، فسألتها عنها . . وكانت أمي قد
خرجت من الغرفة لبعض شأنها . .

«رباه . . كيف أنسى تلك اللحظات . . ضحكت إحسان
ضحكتها العابثة - التي كنت أسمع جرسها العذب يدغدغ
حواسي - ثم اتخذت عيناها سمة غريبة ، لم أكن قد رأيته من قبل ،
وأرخت أجفانها قليلا ، وهي تقترب مني بجسدها الرخص ،
وأنفاسها تلفح وجهي ، وعطرها يطغى على حسي . . ومالت بفمها
على وهي تهمس في أذني : « أو ما تحجل من نفسك ، ومن
جهلك الفاضح باللغة ؟ . . أو ما سمعت قط بـ « الحب
العذري » ؟ أم أنك في الحقيقة لا تعرف من ألوان الحب سواه ؟ »
قالتها واستردت جسدها الرخص من جوارى في حركة ضجر
مفاجئة ، فلمست كتفي - لأول مرة ! - صدراً ليناً . . وانتابني
دوار . . وسرت في كياني قشعريرة حمى مريرة عذبة ، سلبتني ليلتها
النعاس . .

« وليتها رحمتني بعد ذلك . . بل إنها دأبت على « تعذبي » . .
وضاعف من وطأة فتنها أنني كنت ، برغم خجلي ، مكابراً - نفس
المكابرة التي تعرفها في اليوم ! - فكنت أنف من الفرار ، وتهيب بي
سذاجة رجولتي الباكرة أن أصمد للفتاة ، أو أسقط صريعاً في

الميدان . . وهكذا كان يستمر الجذب والشد ، على حساب
أعصابى التى أشرفت على التلف . .

« وفى آخر مرة ، وكان ذلك فى مساء يوم قارس البرد ، كنت فى
غرفتى أحاول عبثاً أن أفهم حرفاً من حساب اللوغاريتمات .
وسمعت صوتها تسامر أمى فى الردهة ، فنازعتنى نفسى إليها ،
وتعلمت فى مقعدى أبغى الخروج إليها . . لولا أن لفطة عابرة إلى
التقويم الذى أمامى ذكرتني بامتحان نصف السنة المقرب ، وردتنى
إلى مقعدى محطم الأعصاب ، وقد راعنى مصيرى . . وأدركت أننى
موشك على الضياع ، فخنقتنى غصتى ، وانكفأت بوجهى على
مكتبى مغمض العينين ، أغالب ضعفى . .

« ويبدو أن تأثرى كان قد أضنانى ، فإننى أغفيت - كالطفل أتعبه
البكاء ، فنام بين ذراعى أمه - حتى نبهنى من إغفائتى عبر نفاذ
مألوف ، يملأ الهواء حولى وينعش أنفاسى . . ففتحت عيني ،
نشوان ظمآن ، وإذا « إحسان » قائمة منى على قيد خطوة ، متكئة
على الباب المغلق وراءها ، ويدها خلف ظهرها ، وثوبها يكشف
عن أعلى صدر ناصع ساخن - أو هكذا خلته من بعيد ! - ثم إذا
بعينى المحمومتين تطالعان فى عينيها معانى لا حصر لها ، مشتقة
كلها من الظماً . . والجوع !

« ولم يطل الموقف غير ثوان ، ريثما أيقنت « إحسان » - على هدى
غريزتها - إننى ذاهل عن كل إقدام ، وأن جمودى يغلبنى ، فتركت

الباب إلى حيث المدفأة في ركن من الغرفة ، تتلظى فيها النيران . .
وهناك وقفت مطرقة ، تتأمل الجمر في النار ، وظهرها إلى ،
وصمتها قد ثقل على ، حتى لم أعد أطيع . . فمشيت إليها أسترق
الخطى ، وفي نفسى صدى ما يبلبل فكرها . . ووقفت منها بحيث
لمس شعرها أنفى فأضرم اللهب في أعصابى ، وملأ عطرها
خياشيمى . . واختلج جسدها في انتظار قبضة ذراعى ، وأحسست
بكيانى يزلزله إعصار من الانفعال ! . .

« . . وإنى لأناضل جمودى ، وإذا أعصابها تخذلها ، تحت وطأة
الترقب الذى كان فيها يبدو قد طال . . فتحركت واستدارت إلى ،
ثم انفلتت من الغرفة وفي عينيها نظرة « احتقار » . . لن أنساها .
« وليلتها لم أنم . . ظللت في فراشى أتقلب وأتلظى على مثل
السعير ، وبدنها اللدن يتشنى في خيالى ، ويتراقص أمام ناظرى . .
وصدرها الناهد يهبط على صدرى . . وأنفاسها الساخنة تحرق وجهى
وتلهب وجنتى ، فأحس منها بجفاف في حلقى ، وظماً موجه إلى
ذوب فمها الريان . .

« . . حتى أدركنى الصباح مضنى من السهاد ، خائر القوى
مبهور الأنفاس . . ولم يلبث الإجهاد أن أسلمنى للنعاس !!

« ولم أعد أرى « إحسان » في البيت ، فقد انقطعت عن
زيارتنا . . وعبثاً حاولت أن ألقاها . . وفي المرات القليلة التى

صادفتها فيها ، فى الأسابيع التالية ، صاعدة إلى مسكنها أو هابطة منه ، كانت تتحاشانى وتفلت منى . . فكان مجرد تهالك بصرى عليها ، ولو فى لمحة خاطفة ، يذكى حنينى فى دمنى فيعاودنى طيف القبلة الموعودة ، ملحاً على خيالى ، مؤرقاً لىالى . . وأعاود بدورى إهمالى لدرومى ، مستمرثاً النوم المبكر ، لعل النعاس ينتشلنى من وعى فتراود رؤاها أحلامى . .

«وليت القدر ترفق بأعصابى ولم يمعن فى سخريته ، فأعفانى من اللقاء المرير الذى كان بسبيل تهيبته . ويا له من لقاء ! . . إننى ما أزال أذكره وكأنه قد حدث بالأمس ، فإن الصدمة كانت أعنف من أن يحتملها قلبى الفتى : كنت أقصد منزل زميل لى ذات ليلة ، لأقترض منه كراسة أنقل عنها ما فاتنى من دروس . وكان البرد ليلتها شديداً يهراً العظام ، فسلكت طريقاً مختصراً عبر شارع ضيق لم يكن قد عبّد ، فكان المرور فيه قليلاً . . وبينما أنا أغذ السير ، ويدأى فى جيبى بنظلولنى ، وأسنانى تصطك . . حمل الهواء إلى أنفى الرائحة المألوفة : رائحة العطر الذى تتضمخ به « إحصان » . . فجمدت فى مكانى ، ودار بصرى حوالى ، ينشد طيفها . . حتى وقع عليه خلف جذع غليظ لإحدى الأشجار . . ولكنها لم تكن تعاني كثيراً من الوحدة ، أو البرد ، فقد كانت تؤنسها وتدفعها أحضان رجل ، استجاب لنداء شفيتها . . ولم يكن غريمى غير « جار » آخر لى وإحصان ، كان يقطن من عمارتنا طابقها الأسفل . .

«وأحسست بالدموع التى طالما ناضلتها ، تنهمر بغزارة من عيني . . وأسلمت نفسى لأسى موجع وأنا أعدو عائداً أدراجى إلى البيت ، ودمى يلسع جسدى ويخزنى كالإبر . . ووجدتنى أكمّن فى انتظارها عند الباب ، خلف أحد الأعمدة القريبة ، غير عابىء أو شاعر بالبرد . . حتى رأيتها تدلف إلى الداخل ، ثم تصعد الدرج . . فعاقنى الانفعال لحظات ، وأجفلت . . لكنى لم ألبث أن تمالكت نفسى ، فصعدت خلفها أعدو ، ودقات قلبى تردد مع وقع أقدامى أصواتاً تصم أذنى ، وتصرخ فى سمعى بشدة : « طفل . . طفل . . طفل » . . حتى بلغت بابها ، وكانت قد دخلت وأوصدته ، فنقرت عليه بأصابعى ، نقرة . . ثم أخرى . . ووقفت اهت وارتجف ، وأنا أمنى نفسى بأنى سأختطفها بين ذراعى وأضمها إلى صدرى بقوة ، حتى أحطم ضلوعها أو تصرخ وتستغيث . . بينا تروح شفتاى تتلمسان شفتيها ، وتجريان على رقبتها . . وما بين نهديها . . وتلهبان عنقها وكتفيها و . .

« وفتح الباب . . وبرزت منه « إحصان » . .

« وأحسبك تقدر ما حدث : فقد جنت بمجرد أن رأيتها

أمامى ، بجسدها العارم الطويل ، تسألنى عن طلبتى ببرود . . دون أن تكلف نفسها حتى عناء الاستغراب . . وعبثاً ناضلت جمودى الغلاب . . حتى أحسست أنى أوشك أن أبكى ، وأنا أزدرد لعابى بصعوبة ، وأتضاءل تحت وقر نظرتها الهازئة . . وكان تأثرى قد

تفاقم ، والدموع في طريقها إلى عيني ، فأدبرت وجهي منسحقاً . .
واندفعت أهبط السلم وأنا ألث ، وجرّس ضحكاتها الساخرة
يلاحقني ويصم أذني ، ويردد مع دقات قلبي ووقع أقدامى أصواتاً
تصرخ في سمعي بشدة : « طفل . . طفل . . طفل »

(٣)

وسكت خيرى بك ، كأنها ليلتقط أنفاسه مع الفتى اللاهث الذى
كأنه في فجر الشباب ، ثم استطرد وهو يرمى ببصره إلى البحر الذى
انعكست عليه ظلال من السحاب الأحمر كالدّم ، الذى كان يلطخ
الأفق :

« . . ومضت أعوام ، وعرفت غير « إحسان » ، وذقت طعم
القبلة من أعذب الشفاء . . ثم تزوجت منذ دهر طويل . . ولكنى
برغم ذلك لم أنس شوقى إلى طعم تلك القبلة الموءودة التى « لم »
أقطعها من شفيتها . . وبقي طيفها زمناً يشتعل في حسى دائماً
كالجمرة ، ويطفىء نشوة كل قبلة أخرى . . ويلح على خيالى . .
ويراود أحلامى . . فأفتح في منامى ذراعى لأقبض على بدنّها
الرخص وأنهب شفيتها . . فإذا بذراعى لا ترتدان إلى إلا بالحسرة ،
وإذا بى لا أقبض إلا على . . هواء ! »

« . . واسترد الكهل بصره من البحر الذى انطفأت فيه الظلال ،

ومن الأفق المتماوج برقع من السحاب الأغبر الداكن . . ثم تتم ،
بصوت كأنه أت من بعيد :

« . . وما كنت قد تبينت يومها - كما أتبين الآن - أن نشوة
الإنسان أو شقوته ، ليست غير أطياف أوهام . . تنبع من سراب
صحراء !! » .

(ديسمبر ١٩٤٣)

خبز الهوان

لماذا اختار لي القدر هذا الدور البغيض : دور « الجلال » لثلاثة قلوب ، كانت كلها في قمة الهناء ، أبهج ما تكون إقبالا على الدنيا ، وشغفاً بالحياة ؟

مساء الأحد الماضي ، بعد عودتي من الأوبرا - حيث رأيته في مقصورة قريبة - وجدتني أكتب إليها هذا الخطاب :

مديحة . .

أحسب أنك حين فضضت هذا الخطاب ، ووثب بصرك إلى ذيله ، لقراءة التوقيع ، قد تولتك دهشة وحيرة ، ووقفت عند اسمي لحظة تتساءلين : لماذا أكتب إليك ، أنا الذي لم تكن لك بي - في يوم من الأيام - أكثر من معرفة سطحية ، عن طريق صديق مشترك . . ؟

« . . فكم بالأحرى يكون تساؤلك لو علمت أنني بدوري لم أتوقع شيئاً كهذا ، وأنه لو كان أحد قد تنبأ لي ، منذ ساعات فقط ، بأنني سأقضي جانباً من الليل ساهراً في غرفتي ، جالساً هكذا وراء مكتب صغير ، كي ألقاك عبر هذه السطور ، لكنت رميته بالخبل ، فإن فكرة الكتابة إليك كانت أبعد الأفكار عن خاطري . . إلى أن

رأيتك الليلة في الأوبرا - في موقف تعلمين وأعلم كم هو أليم ! - فإذا بانتباهي ينشغل عن متابعة الرواية التي أمامي ، بالتفكير في رواية أخرى : كنت أنت بطلتها ، وكنت أنا - وهذا ما لا تعلمين - المحرك لبقية أبطالها من وراء الستار . . !

«الستار الذي آن له أن يرتفع ، كي أكشف لك عن الدور الذي لعبته في حياتك ، والذي عنيت بإيقائه طي الكتمان حتى الآن ، طوال عامين ، ربما لأنني وجدت لذة خاصة - قد تكون شريرة - في أن يظل لغز ما أصابك قائماً في ذهنك بعير حل ، فتطول حيرتك وجهلك ، ويضنيك البحث عن تفسير لما حدث !

«وما كنت لأغير موقفى وأطلعك على الحقيقة ، لولا أن ما شهدته الليلة قد أثار في نفسى كامن عطفها ورثائها ، حتى لقد رأيت أخيراً أن أكون كريماً معك ، أنت التي لم تكونى كريمة مع أحد ، ولا حتى مع نفسك !

«ولكن . . ما هكذا تكون البداية » !

« منذ عامين ، وكان ذلك في أوائل ديسمبر على ما أذكر ، وصلت إلى بلدة في الصعيد كي أترافع في إحدى القضايا ، على أن أعود بقطار المساء . وانفضت الجلسة مبكراً ، فخرجت مع زميل قديم نذرع شوارع البلدة ، مستمتعين بشمس الضحى ، ونتذاكر أيام الدراسة الحلوة . . حتى حان وقت الغداء فألح على صديقى أن

أمضى معه لتتناوله في منزله . . ثم جلسنا في الشرفة نهضم الطعام
بالسمر : تحدثنا في المهنة ، والسياسة ، والجو . . وكل شيء ، إلا
المرأة والحب . . فإن مناسبة ما لم تنعطف بنا إلى هذا الموضوع . .
حتى انصرفنا ، هو إلى مكتبه وأنا إلى النادي القريب ، لأقضى
الساعات الباقية على موعد السفر . .

«وكان يمكن أن ينتهى الأمر عند هذا الحد ، فكانت هذه
التفصيلات تضيع في غمار التوافه العادية التى تتكرر كل يوم ، لولا
أن القدر - الموكل بتسييرنا كالدُمى ، بواسطة خيوط فى يده - كان فيما
يبدو يؤلف وقتئذ إحدى مسرحياته ، ويبحث عن أبطال لها . ولا بد
أنه رأى لحظتها ، فخطر له أنى قد أصلح للدور المطلوب ، وراقه
أن يسنده إلى ، فدبر أن أنشغل فى مكتبة النادي بكتاب شائق
أنسانى نفسى . . حتى فاتنى القطار . .

« . . وصار حتماً على أن أبقي فى البلدة يوماً آخر ، فقبلت دعوة
صديقى للمبيت عنده . وإنى لأتبع الآن أن أفدح النتائج رهينة فى
الغالب بأتفه الأسباب والمصادفات . . فقد كانت الأمسية الطويلة
كافية لأن تطرق الموضوع الوحيد الذى لم يجيء دوره بعد الظهر ، وهو
موضوع المرأة . . والحب !

« ما الذى ساقنا إليه فى المساء ؟ . . لا أذكر . . ربما كنت قد
استشعرت الوحشة فى معيشة صديقى وحيداً أعزب فى ذلك البلد
النائى ، فسألته : ألا يفكر فى الزواج ؟

«وانطلق يحدثنى جذلاً عن فتاته : خمسة أعوام مضت وهما يتساقيان كؤوس الهوى مترعة ، منذ عرفها وهو بعد طالب ، إلى أن نال الليسانس واشتغل محامياً ، ثم سافر ليمارس المهنة في بلدته تلك بالصعيد ..

« .. وكم بكت الفتاة وهى تودعه .. وكم تبكى وهى تودعه بعد كل إجازة يقضيها في مصر .. وما أحرَّ العاطفة التى تفيض من خطاباتها له ، التى تعد بالعشرات ..

« كان يتكلم فخوراً بمن ولأها على قلبه ، وأعدتها أحلامه لعرش ثان : عرش بيته ، الذى سينصبها عليه قريباً ، عندما تسمح الظروف ..

« .. وكأنها أعياء وصفها ، أو خيل إليه أنه مهما وصف فلن يوفيها حقها ، فقام إلى الدولاب وأخرج منه .. لا صورة واحدة ، وإنما «البوماً» من الصور ..

«ولم تكن الفتاة إلا أنت ..

«أنت التى كنت - طوال الأعوام الثلاثة أو الأربعة الأخيرة - أراك في مصر دائماً مع ابن عمى «فؤاد» ، وأعلم مدى علاقته بك ..

«وهكذا بدت الخديعة سافرة أمام عيني .. لقد كنت كالقطط الشريرة ، تعملين «بروحين» .. واعتنقت شريعة سمحاء :

الشرك في الحب .. فاستبحت لنفسك - في وقت معاً - عواطف رجلين ، خصصت البعيد منها بحبك الطاهر ، وخصصت القريب

بحبك الفاجر . . وأفلحت في أن تضرى جذوة العاطفة في كيائها
بوقود واحد : رضاب شفئك . . أبَيْتِه على الأول فألهبه الحرمان ،
وأَبَحْتِه للثانى فألهبه الإِدمان !

«وهكذا بقى الاثنان فى الأسر !

«بقيا طويلا ، وكل منهما يحسب أنه أسيرك الأوحـد ، وأن
ابتسامتك وعبوسك ، وغضبك ورضاك ، وقف عليه . . فيغبط
نفسه على أنه قد انفرد بهذا «الشرف» من دون الناس !

«يا للسخرية ! كيف طاوعتك نفسك ففعلت بهما هذا ؟ . . لو
أنك ذقت ، ولو مرة فى حياتك ، طعم الألم النفسانى المرير . . أولو
حتى شاهدته على قسماـت وجهيهما وأنا أسقى كلا منهما الحقيقة المرة ،
على جرعات - خوف أن تقتله الصدمة ! - لكنت قد ترفقت بهما ،
ولاخترت لصحيتك غير هذا العقاب !

« لقد شهدت منذ أيام تنفيذ حكم الجلد على تاجر جشع ،
وأقسم أن وقع الشياط على جسده كان أخف من وقع الحقيقة فى
نفسى « حشمت » و « فؤاد » ، وإن اختلفت عندهما قوة الاحتمال :
فلقد خذلت الأول أعصابه حتى كادت الدموع أن تطفر من عينيه ،
لولا أنه استنجد برجولته ! وبرغم ذلك فإنى أفقت من النعاس فى
تلك الليلة ، قبيل الفجر ، على صوته ينشج بالبكاء فى نومه ، وهو
متشبث بكتفى كالأطفال !

« أما ابن عمى - فؤاد - فقد كان أكثر تجلداً ، أمامى على الأقل ،
فأخفى أساه فى ضحكة تمثيلية ، وهو يزعم أنه لم يكن جاداً فى علاقته
معك ، وما فكر قط فى الزواج منك !

« وحين حضر « حشمت » إلى مصر بعد أسبوعين ، عرفته
بغريمه ! ولست فى حاجة إلى أن أصف لك لون الابتسامة الواهنة
التي ارتسمت على زاوية فم كل منهما ، وهو يصافح الآخر !
« .. كما أنى لست فى حاجة إلى الإطالة ، فإنك تعرفين بقية
القصة أكثر منى ، وتذكرين أنه لم تمض أشهر بعد أن قطع التعسان
كل صلة لهما بك - فى وقت واحد وبلا إيضاح ! - حتى نشرت
الصحف نبأ زواجك !

« .. فقد كان فى جعبتك دائماً « احتياطى » من الرجال . وفى هذه
المرة كان الصيد دسماً ، فإن « شكرى بك » كان من رجال المجتمع
والمال ... !

« .. لكن عدالة السماء لم تشرع عبثاً يا مديحة .. وكم يفتن
القدر فى نسج خيوط العقاب أو الثواب ! .. لا تحسبى أنى
شامت ، وإنما هو الرثاء الذى فاض من قلبى ، برغمى ، حين
رأيتك الليلة فى مقصورتك بالأوبرا منزوية كالمنبوذة ، وزوجك
منشغل عنك - أمام الملأ وأمام عينيك - بصديقته « نعمات » التى
أصبحت علاقته بها حديث الناس ، والتى لم يجد غضاضة فى أن
يجلسها معك ... !

« لكم كان الموقف أليماً . . لا تمارى يا مديحة ، فإنك امرأة ،
تهون عليك دنياك وآخرتك ، ولا يهون كبرياء أنوثتك . . وتفريطين في
كل شيء ، لكى تنفردى بقلب الرجل الذى تحبين !

« لكن هيهات . . فإن شريعتك السمحاء قد عمّت ، وكنت من
ضحاياها ، إذ اعتنقها زوجها . . الذى سرعان ما سئمك ، فإذا
هو من المشركين فى الحب . . وإذا هو يكيل لك بنفس الكيل الذى
به كنت تكيلين ! . . وبعد أن كنت الحاكمة المطلقة على قلبين ،
صرت الرعية المظلومة من حاكمها ، يسومها الخسف والهوان !
. . وأى هوان وأى إذلال أشد وطأة من أن يجمع زوج بين حليلته
ونخليلته فى مكان ؟

« أعلم أنى بهذا المس من نفسك عصباً حساساً . . ولكن
شفيعى أنك قد أتلقت نفسيين . . إنها الآن صديقان ، جمع بينهما
حبك ، ثم خديعتك ، ويجمع بينهما الآن الاشتراك فى بغضك ! وكم
كنت أود أن أقول أيضاً إنها سعيدان ، وإن جراح قلبيهما قد
اندملت ، فنسيك . . لولا أننى لا أريد أن أكذب ، فإن البغض فى
ذاته دليل قائم على أنها ما يزالان يذكران !

«وها أنت ذى ترين أن لعنتهما قد حلت بك ، وأن العقاب جاء
وشيكاً . . فإن القدر قد أصدر حكمه عليك بالإدانة ، وسطر
حيثياته بخطوط بارزة ترينها - لو نظرت إلى المرأة - واضحة على

جبينك ، كما رأيتها أنا الليلة حين انتهى التمثيل وأضيئت الأنوار !

«مدحجة ..

« أراك تقرئين هذه السطور والدموع في عينيك .. فدعها تنهمر . اسفحها غزيرة ، ما طاواعتك مآيقك ، لعلها تطهر قلبك من أدران الماضي ، وتغسل أشجانك .. فتجدين بعض العزاء !
« ولا تنسى أن تستمطري الرحمة من السماء ، عساها أن ترفع عنك المذلة ، وتعفيك من خبز الهوان .. فإنها رفيقة ، ولن تضنّ بالغفران !

(يونيه ١٩٤٤)

أزهار .. بيضاء

يحتمل قلبي كل شيء ، إلا أن يرى حسناء شابة ترتدى السواد ،
وفي عينيها ذلك الإعياء الحزين الذي يفيض من القلوب الرقيقة حين
يعصرها الألم ، ويسكب فيها عصيره المرير !
ولعل ذلك أول ما لفت قلبي إلى .. «الطاف» .
ومنذ عرفتها ، أمسى يضاعف من تأثرى الفطرى ، إشفاق
مبهم ! .. صرت لا أرى مثل هذه الصورة الحية للأسى ، إلا
ويقبض قلبي إحساس خاطف بأن وراء إطارها الأسود يكمن سر
مفجع .. وتنعقد خيوط مأساة !

(١)

في ميدان العباسية ، حيث تلتقى خطوط الترام القادمة من قلب
العاصمة ، بتلك الصاعدة إلى هليوبوليس .. رأيتها واقفة ،
تنتظر .

كنت قد غادرت لتوى إحدى مركبات الترام رقم ٣ كى أستقل
ترام مصر الجديدة ، وكان واضحاً أنها تقصد نفس الاتجاه ، ومن
تململها قدوت أنها لا بد قد عانت طويلاً من الانتظار .

.. ولم يلبث الترام أن وصل ، فركبتُ ، وركبتُ هي في العربة الأخرى كي تجلس في مقصورة السيدات .. فلما رأتها قد ازدحمت ، وقفت خارجها مضطرة .

.. وهكذا وجدتها - دون قصد - أمامي : أنا في طرف العربة الأمامية ، وهي في الطرف المواجه لي من العربة الخلفية ، وليس بيننا سوى لوح من الزجاج ، وفراغ يسير ..

رباه .. كيف أنسى صورتها إذ ذاك ؟ : إطار شامل من السواد ، رقيق بقدر ما هو حزين ، يطل منه وجه يذكر بالنقاء .. والصفاء .. والطفولة .. برغم الظلال الخفيفة التي كانت تلثمه وتهالك عليه : من المعطف .. والشعر المهمل .. والأهداب . لماذا ذكرتني صورتها - تلك - بالظلام البارد في الصحراء ، والليل في آخره ، والنجوم كلها قد انطفأت ، ما عدا نجمين ؟ .. الآن عينيها كانتا تومضان ببريق حزين ، برغم الغيوم الكثيفة التي كانت تمشي فيها ، ببطء رهيب ! .. أم لذاك الظمأ للبكاء الذي لمحتة يختلج فيها ، والذي جذبني ، لأنه وشى بقلبها ؟

إن ذوات القلوب الرقيقة هن فقط اللواتي يعجزن عن مغالبة الأسى ، فتفيض عصارة قلوبهن من العيون ، المفتوحة أبداً للبكاء .. أما من يقدرن على الضحك دائماً ، برغم الأحزان التي لا تخلو منها حياة ، فقلوبهن لا بد غليظة قاسية .. قسوة الطبيعة في ذلك الحين !

.. وتذكرت الطبيعة ، إذ خلت جسد الفتاة ينتفض ، كأنها من رعدة خفيفة .. فأشفقت عليها من الهواء المبرور الذى كان يقتحم ذلك الجزء المكشوف من عربة الترام ، فى قوة ودون استئذان ، كأنه يفر من العاصفة العاتية ليختبئ فى أحد الأركان .. فقد كنا فى أواخر الشتاء ، فى عصر يوم من الأيام التى ينفث فيها الشتاء كل قره وسمومه ، قبل أن يودع - إلى حين - ركناً من الأرض نزل منه شهور ..

وكما كان الشتاء فى الجو ، كان فى قلبى أيضاً شتاء ، بضبابه وأعاصيره ورجوده .. كان قلبى هو الآخر متشجاً بغيوم سوداء ، ولم يكن متفتحاً للحب ، بقدر ما كان للثرثاء والبكاء .. فقد كنت عائداً من زيارة صديق عزيز أثر الخلوة والرقاد بعيداً فى بطن الصحراء !

كان «أحمد» قد عجل بالرحيل من دنيانا قبل قدومى إلى مصر - بإجازتى تلك - ببضعة أيام . وكم ألمنى فراقه ، برغم أن عاماً كان قد انقضى منذ رأيته «آخر» مرة ! .. بل لم أقول أنى أحسست بنوع من «الندم» يقرض قلبى ؟ .. فإننا حين نفقد مخلوقاً عزيزاً ، تعاني قلوبنا التعسة كثيراً من الندم على أننا لم نحبيه أكثر مما أحبيناه ! .. ونتوهم ألواناً من التقصير والإساءات صدرت منا إليه ، فتمنى لو كنا قد أنذرنا قبل رحيله ، إذن لغمرناه بكل ما فىنا من عاطفة ، وتسامح ، ووفاء !

.. ومربخاطري أحمد ! تصوريته في رقاده الموحش الدائم تحت
أحجار ثقيلة من الرخام البارد ، وزئير العاصفة يعوى في فضاء
الصحراء .. وأعادني هذا التصور إلى الفتاة الواقفة قبالتى ، فقد
أحسست أنى أثمت في حق أحمد حين تركت خواطري تنساق وراء
تأملات تنثرها في خيالى صورة امرأة !

لكن خاطراً انثال إلى رأسى هامساً : ما هذا الخبل ؟ إن الأمر
لا يعدو أنك وجدت عند هذا الطيف الحزين العزاء ، في صورة
إغداق الرثاء .. فإن النفوس الحزينة لا يعزىها أكثر من مصادفة
نفس أخرى في حزن أقسى وأفجع ، ولا يريحها إلا مرأى
السواد ! .. أو تنكر أنت أن أساك قد تراجع خجلاً من فجيعتها ،
وأن نفسك قد استراحت من بعض حملها ؟
واقتنعت بوجاهة هذا « العذر » .. فكم نضحك على أنفسنا
أحياناً ونزين لها ما نريد .. حين نريد !

وهكذا عدت أتأمل العذراء المنكوبة من جديد ..
« عذراء » ؟ .. ترى ما الذى أدخل في روعى هذا الخاطر ؟ ..
لعلها قسبات وجهها جميعاً ، فقد كانت قسبات ساذجة صريحة ،
كصفحة مفتوحة من كتاب .. صفحة ناصعة البياض !

.. وانتقلت بتأملاتي إلى الصفحات الأخرى من كتابها ،
الصفحات المطوية عن العيون ! حاولت أن أتعلم إلى القلب : ترى
ما لونه ؟ هل هو الآخر ناصع البياض ، فيما عدا الغلالة السوداء
التي يُسْرِبِلُهُ فيها ألم فراق الأموات ؟ .. أم أنه قد اصطبغ بلون من
ألوان العواطف الحادة ، التي قد تبهت ولكنها لا تزول ؟
وشجعتني على إطالة التأمل أن الفتاة كانت مشغولة عني ، فإن
نظراتها الشاردة كانت تنفذ من أقرب شيء إليها - دون أن تراه - إلى
ما وراء أفق سحيق مجهول .. وهكذا لم يبد عليها أنها .. أحست
بوجودي !

.. إلا حين هممت بالنزول ، فإن رجّة الترام قبيل الوقوف هزت
نظرتها من ذلك الاتجاه الغامض إلى حيث قابلت عيني ، ولابد أنها
رأت فيها الرثاء الخالص والانعطاف البريء ، فإنها لم تشمئز ، بل
خيل إلي أنها قدرت لي في سرها هذه المشاركة ، وإن كان النفور من
الناس جميعاً ما لبث أن أعاد نظراتها إلى واديهما السحيق !

وعندما وصلت إلى غرفتي شكرت لها ، بدوري ، وفي سري ،
أن طيفها أنساني برودة الهواء ، وأدفأني طوال الطريق من محطة
الترام إلى « البنسيون » الذي كنت قد اخترته بمجرد وصولي إلى
القاهرة في اليوم السابق ، كي أقضى فيه مدة إجازتي السنوية ..
ولكن ، ما أقصر شهراً في القاهرة بالنسبة لموظف في الأقاليم ! ؟
إنه يعود بعده إلى مقر عمله منهوك القوى من فرط الإجهاد ، فإن

الشهر يجب أن يتسع لعشرات الطلبات . . وفي كل عام كانت
الاجازة تفلت منى - دون أن أشعر - بين المحال التجارية ،
والترزى ، والطبيب ، ودور الملاهى ، والمرور على الأصدقاء . .
ولكنى فى العام الماضى أهملت أكثر هذه المشاغل لأغرق همى فى
أشجان «الطاف» !

أعترف أنى كنت قد نسيتها عقب تلك المصادفة العابرة فى
الترام . . حتى لمحتها بعد يومين فى نفس الميدان ، وفى نفس موقف
الانتظار ! فعادت إلى ذاكرتى فجأة الصورة الأولى بكل دقائقها . .
ودهمتنى ، بكل قوة ، جميع المشاعر التى كانت قد تزاхمت فى حسى
فى المرة السابقة . . فندمت على أنى أهملتها ، ولم أدعها إلى خاطرى
طيلة اليومين ، كى أسرى عنها . . ولو فى الخيال !

وكم تحايل القدر بعد ذلك كى يجمعنا خلال الأسبوع التالى مرات
ومرات ، فى نفس المكان ونفس الموعد ! . . حتى بدأت أحس أن
صلة مبهمه كانت تختصر المسافة بيننا يوماً بعد يوم ، وأن تعاطفاً
صامتاً بات يقربنى إليها أكثر فأكثر . . وإن ظلت الصلة بلا
مفتاحه ، والتعاطف بلا كلام ، إثاراً منى أن أحترم حزنها ونفورها
من الناس . . خاصة وأنى لم أقدر أن سيكون لها شأن فى حياتى ،
أكثر من مجرد طيف لطيف عابر ، إلا حين ضمنا موقف جديد
مفاجئ بعد ذلك بأيام !

فأمام قبر صديقى الراحل «أحمد» ، لمحتها من بعيد وأنا مقبل

عليه في إحدى زياراتي . . وللحال ، ملكنى شعور شاذ : أحسست
أننا لسنا غريبين ، وأن رابطة قوية قد جمعتنا منذ أمد بعيد ، وكأننى
أعرفها منذ دهور ! . . وأوقفتنى المفاجأة بلا حراك . اعتزمت أن
أراقبها من مكانى ، وأن أحترم خلوتها معه ، فلا أزعجها !
كانت منحنية على القبر فى نجوى وخشوع ، وفى عينيها أطياف
دموع ، وفى يدها طاقة من الأزهار البيضاء . . وبرغم تأثرى
وحزنى ، أحسست لحظتها أن زهوراً أخرى بيضاء تنبت فى قلبى ،
الذى كأنها سبقنى إلى إدراك مصير مجهول ! . . وبينما أنا أحاول كظم
هذا الإحساس فى نفسى ، انقطع صمت الزائرة المفجوعة ، حين
انخرطت فجأة فى البكاء !

ولم أعد أحتمل . . شعرت أن قدم مارى جبار تسحق قلبى ، فى
حين تسحق قدمه الأخرى - بلا رحمة - زهرة نضرة نعسانة !
ووجدتنى أقرب منها ، محاولاً جهدى التلطيف من حدة المفاجأة .
ولن أنسى ما أحدثه ظهورى من صدى فى نفسها ، فقد أجفلت
كفراشة مذعورة . . ثم ما لبث الذعر أن ترك مكانه فى عينيها لنظرة
جامدة جوفاء ، بلا معنى . .

وقالت وهى تقمع البكاء فى صوتها : « إذن . . فأنت تعرفه ؟ »

قلت : « نعم . . لقد كان صديقاً عزيزاً »

ولا أذكر ما تبادلناه بعد ذلك من كلمات قليلة ، لا تعنى كثيراً إلى
جانب الاستغراق الشامل الذى ضمنا ، أمام ذكرى وقبر العزيز

الراحل . . إلى أن خرجنا جنباً إلى جنب ، صامتين ، كأننا قد فجعنا
فيه يومها فمضينا نشيع جنازته ، وفي قلبينا حداد ، ولوقع أقدامنا
أنات خافتة منتظمة . .

(٣)

إن عاماً كاملاً قد انقضى ، ولكنى مازلت أرتجف كلما ذكرت
كيف مضينا معاً - على أثر خروجنا إذ ذاك - نجول حول الفضاء الذى
يضم المقابر الساكنة الخرساء . . وكم قضينا من الزمن فى ذلك
التجوال ، نبش ذاكرتنا ، ونبعث إلى الحياة ماضياً طويلاً لأحمد مع
كلينا . . ماضياً مليئاً بصور وظلال رسمتها الأيام بجميع الألوان :
الزاهى منها والضاحك ، والقاتم والعباس ، وكلها صور حية كانت
تهمس فى آذاننا أو تصرخ ، وترقص أمام عيوننا ثم تتلوى . .

بل أذكر كم عانت «الطاف» وكم عانيت ، وهى تظهرنى على
ما كان بينها وبين أحمد من مودة ، ف صداقة ، ف عاطفة نقية ، حتى
ذلك اليوم الذى انتهت فيه علاقتها إلى غايتها فخطبها ، ثم تحدد
يوم للزفاف . . وراح اليوم يقترب ، وهما يطيران إليه !

«ولكن أحمد تعجل !» . . أسمعها الآن فى أذنى كما سمعتها
يومئذ من نغم الطاف ، فى خليط من النحيب والحسرة ، فقد
قالتها وبكت ، واتخذت نظراتها تلك السمة الجوفاء الغامضة ،
وذلك الاتجاه نحو أفق مجهول . . قريب وسحيق معاً !

ثم استطردت : « ومنذ فاضت روحه - بعد مرض خاطف ، قبيل زفافنا بأيام ! - وأنا أحضر كل يوم في الوقت المقابل للحظة وفاته ، لأضع على قبره هذه الطاقة من الأزهار البيضاء ، التي كان ينوي إهداءها إليّ . . ليلة الزفاف ! »

كيف نطق «الطاف» بهذه الكلمات ؟ . . لقد اختلط آنئذ - في صوتها - مزيج غريب من البكاء والضحك . . ضحك عصبي واهن جعلني لا أستغرب ما حدث على الأثر ، حين غلبها الإعياء والدوار فاستندت إلى ذراعي ، فاقدة الرشد !

وكان طبيعياً ألا أستنتج إلا أن قلبها قد عجز عن احتمال كل ذلك الإرهاق ، فأصيب بنوبة إغماء بسيطة . لذلك لم أضيع وقتاً في الانزعاج وحملتها فوراً إلى طبيب . .

(٤)

إن عاماً كاملاً قد انقضى ، ولكن أعصابي ما تزال تخذلني كلما ذكرت كيف صارحتي الطبيب بالحقيقة المرة : إن أحمد قد مضى ، ولكن بعد أن ترك أنفاساً منه تتردد ، في أحشائها ! إذن فهو حقاً قد «تعجل» . . واستبق الزفاف !

وآثرت ألا أصارح الطاف بأنني وقفت على سرها ، فقد أردت ألا تكون نظرتها إليّ ذليلة ، يثقلها أي عار . . أردتها أن تكون سعيدة موفورة الكرامة في حياتها «معي» . . نعم ، فإن نواياي كانت قد

وضحت ، فى قلبى ورأسى معاً . . . وحينما لقيتها عائدة من القبر-
بعد يومين - عرضت عليها أن تشاركنى الحياة ، وناشدتها أن تقبل
الزواج منى ، على أن أترك قلبها لأحمد ، تملؤه بتذكاراته وتستحضره
فيه كلما أرادت ، واعدأ بأن أقنع من ذلك القلب الكبير بركن منزو
أزورها فيه ، حين تشاء . . !

لكن لمحة من عينيها أسكتتني ، وأظهرت لى أنى قد تماديت فى
مسايرة أطماعى ، فقد ازدحمت نظرتها بفيض من المعانى : أدركت
منها الشكر ، والنفور ، والتقدير ، والاعتذار ، و
ولما رأت إلحاحى ، وعدتنى بأن تفكر . . وأن تجيبنى فى الغد !

(٥)

إن عاماً كاملاً قد انقضى ، ولكنى لن أنسى كيف مرت
الساعات متباطئة ثقيلة . . حتى ذهبت إلى القبر فى عصر اليوم
التالى ، وأنا فى إعصار من الانفعالات ، لأجد جوابها فى خطاب
قصير ، تركته مع حارس المقبرة فى الصباح !

يا للمسكينة . . لقد استعانت بكل ما فى روحها من البراءة كى
« تشكرنى » ، وتعتذر بأن ليس فى طاقتها أن تقابل عاطفتى
بمثلها ، لأن قلبها ملك لأحمد . . ولأنها لا تريد أن تغشنى ! . . ثم
ترجونى فى نهاية الرسالة أن أنساها ، فإنها لا تستحقنى . . « وكم
أنا طيب ، ومخدوع ! »

لن أطيل . . فلقد عمدت هي بعد ذلك إلى الاحتجاب ،
وانقطعت عن زيارة القبر - فراراً من إلحاحى الذى توقعته ! - وعبثاً
حاولت الاهتداء إلى مقرها ، كى أصرحها بأنى لست طيباً
ولا مخدوعاً . . وأنى أعرف سرها !!

ومضى أسبوع ، وأنا فريسة لانفعال عنيف ، بعد أن لم يبق
أمامى باب إلا طرقتة ، وارتددت عنه يائساً ! . . وفيها أنا فى
حيرتى ، تذكرت فجأة طاقة الأزهار البيضاء ، وخطر لى خاطر : أن
أمر على محال بيع الأزهار فى (مصر الجديدة) وأسأل أصحابها جميعاً ،
فلعل منهم من يذكر عميلته ذات الرداء الأسود ، التى اعتادت أن
تأخذ منه طاقة زهر كل يوم . . فيهدينى إلى مقرها !

(٦)

كيف أصف النظرة التى فاضت من عيني أُمى حين عدت من
القاهرة فى نهاية الاجازة ، ومعى زوجتى : «الطاف» ؟ ! . . لقد
زخرت نظرتها لى إذ ذاك بكل ما تسكبه فى العيون عاطفة أمّ تحقق
أملها كاملاً ، على غير انتظار ! . . ولحظتها ندمت على أنى لم أحقق
لها - من قبل - أمنيتها هذه التى طالما لاحقتنى بها فى كل مناسبة ،
وعند قيامى بالاجازة فى كل سنة ، راجية منى أن أكون باراً بها ،
فأدخل إلى حياتى مَنْ تملأ البيت ، وتؤنس وحدتها . .

وحين لهجت أُمى بإعجابها بتوفيقى الزائد فى اختيار زوجتى

الطاف ، وباركت زواجنا ، أحسست أن بركتها تصعد رأساً إلى
السماء . . وأنا سنعيش سعادة !

وها قد مضى شهران منذ ولد الطفل ، طفل «أحمد» !
وحين حملته أمي إلى وهي تشهق بالفرح ، وتقول لي : «انظر
يا بني . . لكم يشبهك !» ، وخز قلبي نصل حاد ، وإن كنت قد
أجبتها عندئذ وأنا ابتسم ، مبعداً عن خيالي وجه شيطان ساخر :
« نعم يا أمي . . إنه يشبهني . . فشكراً لله ، ولك ، ولألطاف !»
. . أما أحمد ، فقد شكرته لحظتها في سري !

. . حتى حضرنا جميعاً بالاجازة منذ أيام ، وأخذت أطفاف
والطفل إلى قبر أبيه التعس ، لنضع عليه طاقة من . . الأزهار
البيضاء ! . . وعندما بكى الطفل - كأنها من رهبة المكان - رثيت
له ، وأنا أقمع في نفسي خاطراً حزيناً : إن هناءنا الزاخر لا تشوبه
إلا غصتان : افتقادنا لأحمد . . ثم هذا الزيف الذي سيلازم الطفل
حين ينطق قريباً فيقول : «أبي» . . لمن ليس أباه !

وهمست لأبيه في نجواي :

«اطمئن يا أحمد . . فسرعه !»

(يوليو ١٩٤٤)

رجل .. له ماضٍ !

(١)

من صمته أدركت أن همه يضمنه ، ويتجمع في رأسه قبل أن
ينفجر ويفيض على لسانه . كان صمماً كالذى يسبق المصارحة ،
يرهق كلا الجليسين : المترقب .. والمتردد !

.. لكن تردده طال أكثر مما قدرت ، ولم تفلح في إنهائه وسائل
الاستدراج التى جربتها معه ، فقد ظل ينظر إلى الفضاء خارج
النافذة بثبات عجيب ، وكأن بصره مشدود إلى الأفق بخيوط غير
منظورة .. فتركته لشروده وشغلت نفسى بمحاولة استنتاج السر
الذى أغراه باصطحابى معه إلى منزله فى ذلك الضحى ! .. إن
المصادفة وحدها هى التى جمعتنا . كنت أعبّر شارع فؤاد الأول داخل
سيارة « تاكسى » حين أوقفتنى إشارة المرور عند تقاطع شارع عماد
الدين . وفيما أنا أنتظر إشارة الإذن باستئناف المرور ، فوجئت بباب
التاكسى الأيمن يفتح ، ويقفز منه إلى جوارى ضابط « بوليس » ،
تبينت فوراً أنه « عزت » ، زميل الدراسة القديم ..

كانت قد مضت أعوام لم أره خلالها إلا لماماً ، فى فترات متباعدة ،
فكنا فى كل مرة نتبسط فى الحديث فنستعيد ذكريات الماضى ،

ونتواعد على أن نلتقى كثيراً ونبعث زمالتنا القديمة من جديد . . لكن الأيام كانت لا تلبث أن تباعد بيننا في كل مرة ، فينسى كلانا صاحبه ! . . وفي آخر مرة التقينا فيها ، منذ نحو عامين ، علمت منه أنه قد انتقل من دنيانا - نحن العزاب - إلى جوار زوجته . . فأدركت أن الشقة بيننا قد ازدادت اتساعاً ، وافترقنا يومئذ بغير أن نتواعد !

. . حتى جمعتنا المصادفة هذه المرة في التاكسى ، فرجاني « عزت » في إلحاح أن أصحبه إلى منزله . وكانت في صوته رنة توصل جعلتني أهمل العمل الذي كنت منطلقاً إليه ، وأمضى معه !

ووقف بنا التاكسى في أحد شوارع « شبرا » الضيقة ، أمام « عمارة حرب » . . مبنى من تلك المباني التي شيدت على عجل في أثناء الحرب بقصد الاستغلال الفاحش . . ثم تقدمنى صديقى إلى مسكنه في الطابق الثالث . .

على أننا لم نكد نستقر في غرفة الاستقبال ، ويقدم لى عزت بعض الشراب ، ولم أكد أتهياً أخيراً لسباح ما يريد أن يفاتحنى فيه ، حتى شرد منى . . وراح يتطلع إلى النافذة في هيئة من نسي وجود ضيف إلى جواره !

وران على المكان سكون كثيب ، ذكرنى فجأة بأننى لا أرى حولى في جو البيت الموحش ذلك الرونق السحري الذى تضيفه المرأة على جو بيتها ، والذى ينطق قطع الأثاث الصامته وتحف البيت الصغيرة

بان وراء تنسيقها يد ، وذوق ، مخلوقة ناعمة . . ولا أتشم ذلك
العطر الغامض الذى يهدى حواسنا إلى وجود امرأة فى المكان ! . .
فقلت لصديقى مندفعاً بدون تدبر : « على فكرة ، ألم تقل لى يوماً
أنك قد تزوجت ؟ إنى لا ألع فى بيتك ظلاً لحواء ؟ ! » .

فامتقع وجهه بغتة ، وتبينت على صفحته ذلك الاضطراب الذى
يحدثه إلقاء حجر ثقيل فى بحيرة ساكنة ! . . وبرغم ذلك لم أستطع
قمع ما تملكنى على الفور من شعور شاذ بالارتياح ، لعله شعور
الجراح حين يرى انبثاق الصديد من دمل ملوث ، على إثر وخزة من
مبضعه . . أو شعور القصاص حين تنبئه بادرة بأنه مقبل على سماع
قصة من الحياة !

وصدق حدسى ، فإن صديقى لم يلبث أن رمقنى بنظرة خلت
معهما كأن قاع نفسه قد طفا فجأة على سطح حدقتيه ، فعكرهما . .
ثم قال فى لهجة الجاد : « متى عرفت نبأ زواجى ؟ » . . فقلت ، وأنا
أجهل مقصده من السؤال : « منذ نحو عامين » . . وعندئذ أطلق
ضحكة استهتار ساخرة ، ثم قال متكلفاً المزاح والمرح : « أو هوه . .
صبح النوم ! . . أو تظننى «محدث نساء» ، أصبر عامين كاملين على
رفقة ، أو ربة ، زوجة واحدة ؟ »

لكن سخريته من نفسه لم تطل ، فقد نهض على الأثر من مقعده
فى تأفف وضيق ، وأخذ يذرع الغرفة فى عصبية ظاهرة ، وقد استرد
مظهر الجذ الصارم . . ثم أقبل على يمسك بذراعى ويناشدنى فى

صوت ينطق بالحيرة القاسية : « اسمع يا فلان . . أرجو ألا تسخر مني ، فأنا أريد استشارتك في أمر خطير ، بالنسبة لي على الأقل . . » وقبل أن أفهم شيئاً ، أو أستفسره عما يقصد ، قادني من ذراعي إلى حجرة مجاورة مغلقة النوافذ ، ثم اقترب بي من « شيش » النافذة المطلة على الشارع الضيق . . ولفرط دهشتي رأيت يده يضع عينه على ثقب مستدير في حجم حبة « الترمس » ، يدل مظهره على أنه نُقِبَ في خشب النافذة حديثاً ، ثم رفع وجهه إلىّ وهو يقول : « بربك انظر . . تأمل هذه الفتاة التي تسقى أصص الأزهار في الشرفة المقابلة ، وقل لي رأيك فيها بصراحة . . »

وعقدت الدهشة لساني ، فقد كان ما رأيته عجباً ! . . كانت الفتاة صبية يافعة ، لا تزيد على الخامسة عشرة . . فتملكني ميل قوي إلى أن أصبح به هازئاً : « ماذا . . أتريد أن تتبناها ؟ » . . لولا أنني لمحت على وجهه لطفة ساذجة إلى سماع رأيي ، فكتمت سخريتي - إشفافاً عليه - وتكلفت أن أقول في إعجاب مصطنع : « وماذا يمكن أن يكون رأيي فيها ؟ لاشك أنها جميلة ورشيقة ! »

ولم يخب تقديري ، فقد انفرجت أساريره فرحاً بهذا المديح ، ولكن في ومضة سريعة ، كأنها بدون وعي ، ثم عاد يسألني في لعثمة وحماس ظاهرين : « ولكن . . ليس جمالها الذي يعينني ، وإنما أنا أريد أن أعرف : هل تعتقد أن لها . . ماضياً ؟ » .

ومرة أخرى كادت الضحكة تفلت مني ، لولا أن سارعت

أجيبه ، ساخراً برغمي : « يا أخى .. أهذا كل ما يقلقك ؟ .. إذا لم يكن للفتاة ماض ، يكون لها مستقبل ! »

لكن النظرة التى قابل بها جوابى جعلتنى أندم على مزاحى . كانت نظرة تأثر شديد ، لا تصدر إلا من نفس معذبة ، فبادرته فى لهجة اعتذار خالصة : « ظننتك تمزح .. أوحقاً تسألنى عن ماضى هذه «الطفلة» ؟ » .

وبدا أن الكلمة قد استفزته ، فقد تنهد فى حرقة ، وأطلق صوتاً يشبه ضحكة الاستهزاء المبتورة .. ثم قال وهو يغوص يائساً فى مقعد جلدى كبير ، كمن تداعت قدرته على المقاومة : « تقول : «طفلة» ؟ .. يالك من ساذج ! .. إن ماضى شبابى حافل بالمغامرات الشهية ، مع «أطفال» أصغر من هذه .. ! »

(٢)

وصمت برهة ، وهو يخرج من جيبه سيجارة ، ويشعلها ، ويروح ينفث دخانها ، فى بطء وروية .. ثم استطرد فى لهجة اعتزاز واعتداد برأيه :

« إن المرأة يا صديقى مخلوق عجيب ، يسبقنا فى الإدراك وتفتح الغرائز بسنوات .. انظر إلى طفلة السابعة وهى تسوى شعرها أمام المرأة ، فتهايل دلالة ، وتلين خصرها لمداعبة عمها أو خالها ، تدرك أن المرأة إنما ترضع نزواتها وصبواتها مع اللبن ، وتلهم الخداع والغواية

قبل أن تثبت أسنانها . . فتؤمن معى بأن لا أمان لامرأة ، ولو نبت لها جناحان !

« لست أقول هذا اعتباطاً ، وإنما عن خبرة ، وتجارب ، وأهوال . . لو مرت بك لشيتتك كما شيتنى . . فلعلك تعلم أننى فى هذا الميدان «محارب قديم» ، لم أبخل على شبابى بمتعة ، ولا عصمت نفسى من معصية . . كان الضمير دائماً فى معجم حياتى مرادفاً للجبن ، والشرف مرادفاً للعجز . . فلهوت ، واستمتعت . . ولم أتورع عن خطايا أو دنايا أياً كانت . . لم يعوزنى يوماً مال ، أو حرية ، أو مخدع آمن . . فاستبحت كل شىء ، وطلقت كل إيمان ، خلا إيمانى بأن خير وسيلة للتخلص من إغراء أية متعة هو الاستسلام لها . . والارتواء منها حتى الشبع ، فالملل ، فالاشمئزاز . .

« وعشت هكذا عشرة أعوام ، معيشة بوهيمية فوضوية عجيبة . . لم أبت خلالها فى مخدع واحد ليلتين متواليتين . . وخبرت فيها هو الغوانى ونزوات المحصنات ، وذقت جميع المحرمات . . حتى سئمتها . . سئمت كل ألوان تلك المتع العابرة ، واعترانى ذلك الشعور القوى بالنقص ، الذى يغرينا بالزواج . . وتلك الحاجة الملحة إلى حياة الراحة والاستقرار ، فى رفقة امرأة طاهرة أقتنيها بلا شريك ، لا فى الماضى ، ولا الحاضر ، ولا المستقبل . . »

« . . ومن ثم بدأت أبحث وأنقب ، فى روية وإمعان . كانت

تجاربى قد دلتنى على أن المرأة الفاضلة يفوق ثمنها اللآلىء ، وأن من أعقد مشكلات الزواج مشكلة العثور على فتاة يؤمن الرجل بأنها «طاهرة» ، لم تعرف القبلة ، أو اللمسة ، أو المناجاة . . وهكذا مضيت فى بحثى حتى اهتديت إلى فتاة دلتنى مظهرها على أنها ضالتي المنشودة ، فاتجهت نحوها جدياً ، ولكن فى حذر اللثيم . لم أسمح لنفسي بأن أنخدع بالمظهر ، فأجريت عليها طائفة من الاختبارات الماكرة ، الكفيلة بكشف طوية أخبث النساء . . لكنها نجحت فيها كلها «من أول دور» ، وبتفوق ، فوثقت أنها امرأة مأمونة الجانب . . وتزوجتها . .

« كانت «سميرة» نموذجاً لذلك الجمال الساذج المحبب ، الذى يوحى بالطهر والبراءة . أعجبنى فيها هدوؤها وسماحتها ، وحيائها العذب ، ورقتها الخالصة . . ونظراتها الصافية التى تطالع فيها قلبها ونواياها ككتاب مفتوح ، ناصع الصفحات .

«وتزايد إعجابى بها بعد زواجنا ، حين وجدت فيها تلك «المرونة» النادرة التى لا تملكها غير فئة «الموهوبات» من النساء . . المرونة التى تتحول بها الفتاة بعد الزواج من عذراء ساذجة إلى غانية لعب ، متفجرة الأنوثة ، ترى زوجها من أفانين الهوى والمتعة ، ما لا تحذقه غير الفاجرات ، وما يغنيه عن الغانيات . .

«وقد كانت «سميرة» نابغة حقاً فى هذا المضمار ، فأرتنى من فنونها عجباً . .

«لكن استمتاعى بنبوغها ذاك لم يدم أكثر من أسابيع . . تحولت حياتى بعدها إلى شبه جحيم . . .»

وصمت صديقى برهة ، وهو يشعل سيجارته السابعة من سابقتها ، ثم أسند رأسه إلى ظهر المقعد الكبير ، وراح يتابع ببصره سحب الدخان وهى تتلوى وتتكاثر فى جو الغرفة المظلمة ، التى كانت ما تزال مغلقة النوافذ . . حتى أفاق أخيراً من تفكيره ، فاستطرد فى صوت خائر خفيض :

« . . وكانت نقطة التحول ، التى أحالت حياتى جحيماً ، وطردتنى من جنتى السعيدة ، مسألة تافهة فى ذاتها ، لولا دلالتها . . عدت إلى البيت يوماً فسألتها بلا اهتمام ، وهى تستقبلنى بعناقها المعتاد : هل حضر فى غيبتى صديق كنت أتوقع زيارة منه فى غضون ذينك اليومين ؟ . . فأجابتنى دون إبطاء : «أبداً . . ما جاش حد النهارده خالص . من وقت خروجك وأنا قاعدة لوحدى متضايقة » ، فاقنعت بقولها فوراً . . وكان يمكن أن تمر المسألة بلا ذيول ، لولا . . آه . . أى شيطان أوقع بصرى لحظتئذ على يدها القابضة على «طقطوقة» السجاير ؟ . . وما الذى جعلنى أسألها فى سخف عما كانت تفعل بها ، كى تيجينى ، وقد بدأ الاضطراب يلم بها ، بأنها تناولتها قبيل دخولى كى تأمر الخادم بتنظيفها ؟ . . ثم أى وسواس جعلنى أتناول الطقطوقة من يدها ، كأنها بغير قصد ، فأعثر

فيها على عقب سيجارة ، من غير السجائر التي أدخنها ؟ . . وفيما كان ذلك خليقاً بأن يهمني أو يقلقني ، أنا الذي كنت أعلم أن جارتنا التي تقطن المسكن المقابل كثيراً ما كانت تأتي إلى مسكننا كي تستخدم التليفون في محادثة قصيرة ، فتدخن في أثناء ذلك سيجارة ثم تخرج . . ؟

«كلها أسئلة لا أذكر الآن جوابها ، واعتبارات لا أذكر ما الذي أعماني عنها في حينها . . كل الذي أذكره أنني سألتها يومئذ عن صاحب عقب السيجارة ، فتلعثمت وترددت . وزادني ترددتها حدة وانفعالا ، فألحفت في السؤال . . وزادها انفعالي خوفاً وارتباكاً ، فأمعت في الإنكار ! . . ثم تطور النقاش بيننا حتى ضيقت عليها الخناق ، وأحست حرج موقفها ، فتراجعت عن تشبثها ، وأقبلت على تلاطفي في نعومة الحية ، وهي تبسم ابتسامة اعتذار خلافة ، ثم تقول . . إن صديقتها «وداد» هي التي دخنت تلك السيجارة حين زارتها في ذلك الصباح . . وإنها قد خشيت مصارحتي بنياً زيارتها لعلمها بأنني لم أكن «أستلطف» تلك الصديقة بعدما أثير حولها من أقاويل ، ولأنني كثيراً ما أبديت لها عدم ارتياحي إلى صداقتها ، إلى حد أن صار مجرد ذكر اسمها ودفاع زوجتي عن صديقتها «المظلومة» يثير أعصابي !

« . . . وكان ذلك بداية شقائي ، فمنذ تلك الساعة فرّ طائر السعد من عشنا الزوجي ، وهبط مكانه غراب الشك القاتل اللعين !

« لا تتسرع فتتهمني بضيق أفق التفكير ، وبأن زيارة تلك الصديقة في ذاتها هي التي أيقظت شكوكي وغيّرتي الدائمة . . . فلو أن «سميرة» أحسنت التصرف وصارحتني بالحقيقة من البداية لما أغضبتي - برغم نفوري من صديقتها وعدم استساغتي غمزاتها ، وضحكاتنا ، ونكاتنا غير اللائقة - ولما كان الأمر قد تعدى من جانبي حد الإغضاء أو «لفت النظر» ! . . . لكن الذي أنمي الشك في قلبي منذ تلك اللحظة حتى أفرخ وتكائر ، شيء واحد : أكذوبة زوجتي ! . . . فقد أخذت أسأل نفسي وأجيب ، وأبدي وأعيد : «مادامت سميرة قد استطاعت أن تكذب على ، أن تواجهني بعينين كاذبتين ، وفهم مدلس . . . فماذا بقي ؟ وماذا يضمن لي أنها لا تكذب على فيما هو أخطر وأفدح ؟ . . . وكيف يمكنني بعد ذلك أن أثق بصدق كلمة واحدة مما تقول لي ، في أي شأن من الشؤون ؟ » .

«وهكذا راحت تتتابني ، وتتجاذبني ، الوسائس ! . . . فأدركت أن تلك بداية تعاستي ، وأتني قد فقدت إلى الأبد أمني البيتي وطمأنيتي النفسية ، لكنني عجزت مع ذلك عن تدارك هذا الشقاء

الزاحف على بيتى وحياتى ومستقبلى . . فاستفحل وتفاقم ! صارت أيامى دوامة من العذاب المتصل . بت أشك فى كل أقاويل زوجتى وأفعالها ، وأسترب فى جميع حركاتها وسكناتها . . وتمثلت فى خاطرى مختلف صور الخيانة الزوجية التى لمستها بنفسى ، أو عن كئيب ، خلال سنوات شبابى العاثر . أخذت أفسر على ضوئها كل ما يبدو من « سميرة » أو يبدو عليها . . صار يكفى أن أراها تطيل التزين أمام المرأة كى أقول لنفسى والشك يذهب بى كل مذهب : « لعلها تنأهب للقاء عشيق لها فى الخارج ، أو استقبله فى بيتى بعد خروجى !

» . . وإذا عدت يوماً من عملى قبل أن تعود من إحدى « زياراتها » ، ساءلت نفسى قلقاً : « ألا يجوز أن تكون الآن منفردة مع رجل فى مسكنه ؟ » . . وإذا دخلت البيت مرة فوجدتها مشعة الشعر قليلاً ، أو خيل لى ذلك ، مزقتنى الوسواس وتوهمت أنها قد انتهزت فرصة تغيبى عن البيت واستقبلت عشيقاً فى مخدعى !

» . . وهكذا ، إلى آخر تلك الهواجس الموجهة والشكوك الفظيعة التى صرت نهياً لها طوال ليلى ونهارى ، حتى مزقت أعصابى . . وكادت تفقدنى صوابى !

« وهل أنسى يوم عدت من المقهى ذات مساء ، فلم أكد أصدع الدرج وأبلغ الطابق الذى فيه مسكنى حتى رأيت صديقاً لى يطرق بابى ، فلما رآنى خيل إلى أنه تلعثم قليلاً وهو يقول لى : « الله ! . .

هو انت لسه ما جتش البيت ؟ ده أنا كنت فايت من الناحية دى
فقلت أما أدخل أمسى عليكم . . وازاى المدام ؟ إن شاء الله تكون
بخير؟ . . فأكدت له أنها بأتم خير ، ودخلنا . . لكنى قضيت
السهرة كلها شاردأ فى واد سحيق ، نهبأ لأقسى الوساس
والشكوك . . فقد ذكرنى موقف صديقى على بابى بموقف مشابه من
مواقف شبابى العابث ، كنت أنا أيضاً أحد بطلية ، أما بطله الآخر
فكان صديقاً قديماً لى كنت على صلة . . بزوجته . . وكانت قد
عودتنى أن ألقاها فى بيتها ، خلال فترة تغيب زوجها فى عمله . .
فصادف أن كنت منصرفاً من مسكنها ذات يوم على إثر خلوة
مختلصة ، وفيما أنا أهبط السلم . . لمحت زوجها صاعداً . . وكان
لا بد أن نلتقى فى منتصف السلم ، فيدرك كل شىء ، أو يستريب
فى الأمر على الأقل . . ومن ثم ألهمنى ارتباكى فى ذلك الموقف
المشوم أن أسارع فأصعد الدرجات القليلة التى هبطتها ، ثم أقف
على باب مسكنه أطرقه . . كئنى قادم توأ لزيارته ، ولست منصرفاً
من لدى زوجته .

«وجازت الحيلة على التعس ، فدخلت معه من جديد . . وقضينا

ثلاثتنا بقية السهرة فى مرح . . برىء !

«ذلك هو الموقف الذى خلته قد تكرر ، حين رأيت صديقى

الجديد الأعزب يطرق بابى ، أنا الذى صرت زوجاً . . فعادت إلى
ذاكرتى القصة القديمة بأشع تفصيلاتها ، وخيل إلى أن القدر أراد

أن يقتصر لضحاياى منى ، فأعاد التاريخ نفسه مرة أخرى . . ولكن مع فارق خطير : هو أنى قد صرت الزوج المخدوع ، بعد أن كنت الصديق المخادع . . والمجنى عليه ، بعد أن كنت الجانى .

«وهكذا انقضت السهرة فى تلك الليلة وأنا فريسة لذلك الشك الرهيب ، الذى يغرى بالجريمة ، أنقل بصرى الزائغ بين زوجتى وصديقى ، حائراً . . جامداً . . صامتاً . . ويودى أن أغمد خنجرأ فى قلبيهما ، كى أنتزع منهما ما يخفيان . . وكلما ضحكا أو تبادلا نظرة «ودية» ، وقعت ضحكاتها على أذنى كالمطارق الثقيلة ، ونفذت نظراتها إلى قلبى كالطعنات المسمومة . .

(٤)

«وغدت حياتى جحيماً لا يطاق ، أفقدنى أمنى وراحتى ، ونومى وأعصابى . . وكاد يفقدنى عملى . . فقد صارت شكوكى فى زوجتى شغلى الشاغل ، وهمى المقيم . صرت أجلس إلى عملى شارداً أفكر فيها ، وفى عشاقها ، فأتمثلها غارقة فى أحضان أحدهم ، تهزأ بى ويغفلتى . . فيجن جنونى وأنهض ، كالمعتوه ، أتناول طربوشى وأخرج بدون استئذان كى استقل «تاكسى» ينهب بى الطريق نهباً إلى البيت . . ثم أصعد السلم قفزاً على أطراف أصابعى ، وأفتح الباب متلصصاً - كيما أفاجئها بين ذراعى عشيقها الموهوم - فإذا بى أراها جالسة فى الردهة تقرأ كتاباً ، أو تنسج لى

صداراً من الصوف . . فتلقاني بهدوئها المثير وابتسامتها الغامضة ،
متسائلة عن سبب عودتى مبكراً .

«وكم كلفنى هدوؤها المثير ، وابتسامتها . .
«كنت حين ترهقنى الوسوس فتثور أعصابى ، أنهار عليها بوابل
من الاستفسارات المخرجة و«الاستجوابات» اللحوحة . .
فلا تغضب أو تثور ، وإنما تتركنى أفرغ كل ما فى جعبتى ، مكتفية -
فى الرد على - بتلك الابتسامة الغامضة الخلافة ، وذلك الهدوء
البارد ، المثير ، كأننى أمزح أو ألقى نكتة «باليخة» لا تستحق
التعليق . .

«وكم أغرانى هدوؤها ذاك بأن أتناول رأسها بين يدى كى أحقق
فى عينيها الضاحكتين بنظرة فاحصة نارية ، وأنا أصر على أسنانى
غيطاً ، وأقمع جاهداً ثورة دمي وأعصابى التى تهيب بى أن أحطم
رأسها وأستريح ! فىكون رد الفعل الوحيد الذى تقابل به ثورتى على
هذا النحو ، نظرة ناعسة ساخنة ترفع بها عينيها إلى ، واختلاجة
راعشة من شفيتها ، تطلب القبلة . . وتستثير الجهاد !

«وليت الليل كان يريحنى من عذابى ، إذن لوجدت أعصابى
فرصة تهدأ فيها وتستكين . . لكن البلاء الأكبر أن هواجسى خلال
النهار كانت تتجسم وتتضخم فى أثناء نومى فى صورة كابوس مفرع ،

أرى فيه زوجتى فى أبشع أوضاع التبذل والتهتك ، تتقاذفها أذرع -
وأحضان - الرجال ! . . فأصحو من نومى مذعوراً ، سابحاً فى
عرقى البارد ، لأجد « سميرة » مستغرقة فى أشهى نعاس وأعذب
أحلام ، وقد انفرجت شفتاها وأستناها اللؤلؤية البيضاء عن تلك
الابتسامة الغامضة الخلافة . . التى تغرى بالجريمة !

« وقد كدت أرتكب الجريمة فعلاً ، ذات ليلة ! . . لم أكد أفيق
من كابوسى فزعاً ، وأراها تبتسم فى حلمها - لست أدري لمن ! -
حتى جن جنونى ، واستبدت بى غيرة فظيعة وشك قاتل ، فأطبقت
بكلتا يدي على رقبتها ، أريد إزهاق روحها . . لولا أن أيقظتها إرادة
الحياة وضغط يدي ، فانتفضت تدفع الأذى عن نفسها بذراعيها
وساقيها . وإذ ذاك خشيت أن تفتضح نيتى ، فسارعت إلى سحب
يدي من حول رقبتها ، وتظاهرت بالاستغراق فى النوم . . فظننت
المسكينة أن ما أحسته كان محض كابوس !

وأطرق محدثى برهة ، ليقمع انفعاله الذى أثارته الذكرى ،
ويدخن سيجارة أخرى . . ثم استطرد بعد حين :
« . . ولم أطق صبراً على عذابي آخر الأمر . . فطلقتها ! . .
طلقت المسكينة وأنا أكاد أومن بأنها بريئة ، وأن هواجسى ليست غير
أوهام تنبع من وحل مبادلى ومغامرات شبابى الفاجرة . . وحين
تلمل ضميرى ، أخرسته بحجة أن الذنب لم يكن كله ذنبى ، وأن

طبيعة الفتاة الهادئة ، وبرودها المثير ، وأنوثتها العارمة . . كانت
المسئولة عن المأساة !

« . . وعلى هدى هذا التعليل أقنعت نفسي بأننى أستطيع أن
أسعد مع . . أخرى . . لو وفقت فى الاختيار . . فلم أكد أنفض
يدى من «سميرة» ، حتى بادرت إلى البحث عن زوجة جديدة !
« . . ولم يطل بحثى . . فسرعان ما اهتديت إلى فتاة راعيت فيها
أن تكون طباعها على النقيض من الأولى : فاخترتها نحيفة الجسم ،
على نصيب متوسط من الجمال ، ونصيب ضئيل من الأنوثة ، قوية
الميل إلى العلوم والآداب والفنون ، وكل ما يشغلها عن التفرغ لعبادة
نزوات جسدها وشبابها ! . . كما حرصت على أن تكون موفورة الحمية
والتوثب والنشاط ، مجردة من جرثومة ذلك الهدوء البارد الذى كان
يحنقنى على الأولى ويشير شكوكى فيها ووساوسى . . !

« لكن الإخفاق الذى منى به زواجى الأول كان من نصيب الثانى
أيضاً ، مع فارق واحد : هو أن طبيعة « فوزية » الثائرة وعصبيتها
الزائدة وحساسيتها البالغة ، قد أعجزتها عن احتمال هواجسى ،
والرقابة الصارمة التى فرضتها عليها ، فصارت تقابل ذلك منى
بالثورات الصاخبة والهياج الشديد . . مما عجل سريعاً بالنهاية ، بعد
أن عشت أشهراً فى جو عاصف من الشجار الدائم والمشاحنات التى
لا تنتهى إلا لتبدأ ، ولا تهدأ إلا لتثور !

« وفى هذه المرة لم أكن غيباً ، أو متغائياً . . أدركت أن علة شقائى

لا تصيبنى من الخارج ، وإنما تكمن فى أعماقى . . . وتفعل فعلها المدمر فى نفسيتى كجرثومة الداء الخبيث . . . فتبلغت الحقيقة الأليمة أمام عيني كالنور الساطع . أيقنت أن «سرطان» الشك القاتل قد تمكن من عقلى الباطن ، وأن نفسى قد تسممت بالجو الفاسد الخانق الذى قضيت فيه أعوام شبابى الباكر ، فلم يعد فى إمكانى الاطمئنان إلى طهارة امرأة أو إخلاصها ، وصار الزواج حراماً على . . . كما صارت العودة إلى حياتى العابثة مرة أخرى ضرباً من المستحيل ، فقد عافتها نفسى بمجرد أن تغيرت زاوية نظرتى إليها فأصبحت من ضحاياها !

«وهكذا انتهيت من حيرتى إلى نتيجة واحدة : هى أن لا خلاص لى من عذابى إلا بالفرار من دنيا النساء ، وإخراجهن جميعاً من محيط حياتى ! . . . وركنت نفسى إلى هذا القرار ، فأحسست - لأول مرة منذ أعوام - بارتياح خالص عميق . . .»

وتنهد صديقى فى حرقه ، وهو ينظر إلى من وراء نظارته بعينين متعبتين ، ونظرة يائسة ، ثم مضى فى كلامه : « . . . لكن الاستغناء عن الخبز والماء أسهل على مثل من الاستغناء عن النساء ! . . . فبالرغم من كل «الإجراءات» الخازمة التى اتخذتها ، على سبيل الحيلة ، بمجرد انتهائى إلى ذلك القرار . . . وبالرغم من تركى مسكنى القديم الذى شهد مأساتى زواجى ، وتغير جو معيشتى تغيراً تاماً ، وعودتى إلى الاختلاط ببطانة من الرجال راعيت فى اختيارهم

أن يكونوا من طبقة أرباب الأسر المحافظين الذين لا يرد على ألسنتهم ذكر النساء . . بالرغم من ذلك كله فإن القدر ما يزال واقفاً لي بالمرصاد . . إذ لم ينقض على انتقالى إلى مسكنى هذا أسبوعان ، حتى . . حتى خارت عزيمتى أمام فتنة عينى الصبية التى أريتك إياها من ثقب النافذة منذ حين ، فأحببتها . . لا تسخر منى ، نعم أحببتها بكل طاقة قلبى وروحى ، حباً أعترف لك بأننى لم أحمله قط لامرأة ! . . فلم أحس إلا وأنا أرتكب جميع الحماقات التى طالما سخرت من «إخوان الصفا» بسببها حين كانوا يقصون أمرها على . . صرت أستلقى على فراشى وأغمض عينى ، ثم أنطلق إلى أودية الخيال فى «رحلات» طويلة لا تنتهى ، عذبة ومضنية معاً ! . . ولأول مرة فى حياتى ذقت طعم الأرق والسهاد من أجل امرأة ! . . ولأول مرة عرفت مرارة انتظار رؤية المحبوب . صرت أنتظر ساعتى الضحى والغروب بلهفة الفتى المراهق ، كى أراها تخرج إلى الشرفة وفى يدها «رشاش» الماء تسقى به أصص الأزهار فى مرح وانشراح ، وهى تغنى وتبتسم ، فإن تلك هى فرصتى الوحيدة لرؤيتها . . أما فيما عدا تلك الدقائق الخاطفة فهى لا تبرح غرفتها ، وإنما تقضى أكثر الوقت مسترخية على ذلك المقعد «الهزاز» الذى تستطيع أن تراه فى ركن الغرفة ، أو مستلقية على فراشها تقرأ مجلة ، أو تغنى وتصفّر بفمها ، لاهية عن الشاب المنكود الذى يراقبها من ثقب صغير فى النافذة ، دون أن تشعر !

« . . نعم ، فلقد غدت مراقبتى إياها مسلاتى الكبرى ! . . منذ ستة أشهر وأنا أراقبها من هذا الثقب ، ساعات كل يوم . . حتى أصبحت أعرف أدق دقائق عاداتها وطباعها وميولها ، أألزمها ببصرى وخيالى حين تأوى إلى فراشها فى الليل ، وحين تنهض منه فى الصباح . . حين تقرأ وحين تدرس وحين تتزين أمام المرأة . . وطوال تلك المدة لم ألحظ عليها ما يريب ، حتى بت أجزم بأنها زهرتى المنشودة ، التى لم تفض بعد أكمامها ولم تنزع عنها أشواكها . . ومنذ رسخ فى ذهنى هذا الاعتقاد ، وجدتنى - بالرغم منى - أعيش وأتنفس ، وأصبح وأمسى ، على أمل واحد تركزت فيه كل أمانى فى الحياة : أن أتزوجها ! . . وعبثاً حاولت قمع هذه الأمنية فى نفسى وانتزاع جذورها من خيالى ، فقد تعمقت وامتدت وتأصلت بدون أن أشعر ، فغدا اقتلاعها من خاطرى بمثابة انتزاع روحى من جسدى ! وغدوت ولاهم لى غير توطين نفسى على ذلك ، وإعداد العدة للزواج . .

« لكننى كلما اقتربت «ساعة التنفيذ» ، أحسّ بأننى مقدم على حماقة كبرى . . على وضع حبل المشنقة فى عنقى من جديد . . فإننى واثق من أننى سأشقى بهذا الزواج ، كما شقيت فى المرتين السابقتين . . بل إن الذى يحز فى نفسى ويجعلنى أرتجف هلعاً كلما تصورت الجحيم الذى أنا عائد إليه بمحض إرادتى ، هو إشفاقى على الفتاة التى أحبها من ذلك الجحيم - أكثر من إشفاقى على

نفسى - ويقىنى بأننى سوف أشقىها معى ، وأذيقها عذاباً مريراً ،
بالرغم منى .. ولكن ماذا أفعل ؟ .. إنى أحبها ، ومن المحال أن
أسلو فكرة الزواج منها بحال ! .. كما أن من المحال أن أسعدها
وأسعد معها ، هى أو أية امرأة أخرى ، ما دام سم ذلك الشك
القاتل يسرى فى دمنى .. إنه شىء يحدث بالرغم منى ، شىء فظيع
رهيب لا قبل لك بتصوره ، ولا قبل لى باحتماله مرة أخرى .. إنه
سوف ينتهى بى إلى الجنون .. فبالله أنقذنى بأى ثمن ، رحمة بى ..
وبالفتاة ! .. حل بينى وبين إتمام هذا الزواج الذى سيقودنى وإياها
إلى كارثة مفاجئة .. فإنى واثق من أن شكوكى وهواجسى المخيفة
سوف تعاودنى ، وتنتهى بى إلى أن أقتل المسكينة هذه المرة ، ثم أقتل
نفسى ! .. فبريك انقذها من هذا المصير ، فإنها فى زهرة شبابها ،
وأنا أحبها .. يا إلهى ، لكم أحبها !»

.. وكانت دموعه قد بدأت تفيض وهو يتكلم ، وتهطل على
وجهه ، حتى خنقته غصته آخر الأمر .. فأجهش بالبكاء ، بصوت
عال وحشرجة الیمة ، وقد دفن وجهه بين راحتيه ..
وحین رفع وجهه ونهض بعد حین ، بعد أن استرد بعض هدوئه ،
كان وجهه فى صفرة الأموات !

وعبثاً حاولت أن أسرى عنه طوال ذلك الأسبوع ، فأنترعه من
جوار تلك الفتاة ، أو أنتزع خيالاته من رأسه .. فاضطرت آخر

الأمر مكرهاً أن أتركه لشأنه . .
.. حتى طالعت في الصحف منذ يومين نبأ نقله إلى نقطة بوليس
جبل «الطور» . . بناء على طلبه !
.. كأنها يستطيع التعس أن يعيش بعيداً عن النساء ! .. أو
يطرح عنه في ظلمات منفا . . أثقال ماضيه !

(يوليه ١٩٤٧)

أبو الهول .. امرأة !

(١)

كنا نتحدث في أغرب أطوار النساء !

وكنت قد رويت للأطباء الثلاثة قصة للكاتب الإنجليزي « أوسكار وايلد » ، بطلتها امرأة أولعت بإحاطة نفسها بجو من الغموض والتخفى ، لا لسر يستحق الإخفاء ، وإنما لكي تثير حولها غباراً من الشك . . . والغيرة . . . والفضول . . . ولتوهم نفسها أنها بطلة من بطلات المآسى المثيرة والأقاصيص !

وتحمس أحدنا - وهو طبيب شرعى - للفكرة الساخرة ، فراح يعززها بسيل من الشواهد والأدلة ، المستمدة سواء من ذكرياته الخاصة ، أو من اختبارات الطويلة - بحكم عمله المتصل بدراسة الطبائع البشرية - ثم لخص رأيه قائلاً إن المرأة مجموعة من « الغرائز » البدائية ، يسهل على من يفهمها أن يفسر على ضوءها ما يبدو لصاحب النظرة السطحية أنه من أطوار النساء الغريبة !

فاعترض ثالثنا - الذى كان طبيباً للأمراض النفسية والعصبية - على هذا الرأى ، فى إطلاقه ، متحمساً بدوره للقول بأن مرد الأمر

كله إلى علم النفس . . الذى لا يستعصى عليه حل أعوص
الألغاز !

وكان رابعنا طبيباً بيطرياً من الإسكندرية ، فرأيته يبتسم وهو
ينصت لنظريات زميليه ، ابتسامة ذات معنى ! . . فلما فرغا ،
اعتدل فى جلسته ، كمن يتأهب لحديث طويل ، ثم قال :
« إذن ، فلعل أحكما يتفضل علىّ بحل هذا اللغز :

(٢)

« حدث ذلك فى الاسكندرية ، فى أوائل صيف ١٩٤٤ .
« كنت قد اعتدت تناول الشاي ، وقضاء ساعة الأصيل من كل
يوم ، فى حديقة فندق (البوريفاج) بالرمل ، حيث كانت أعصابى
المرهقة تجد زاداها فى الهدوء الذى يصفى جوه على المكان . .
« وهناك رأيت لأول مرة : «شهرزاد» !

« لم يكن جمالها وحده هو الذى لفت إليها بصرى - ثم غير البصر
من حواسى ! - فقد كان المكان مليئاً بالجميلات ، والكورنيش فى
الخارج يعج بمواكبهن . . وإنما كان الفضل للمصادفة البحتة ، أو
ما حسبت يومئذ أنه مصادفة !

« كنت قد لمحتها مراراً فى الأيام المتوالية السابقة ، جالسة مع
امراة أخرى فى ركن من الحديقة ، وقد أخفت عينيها وراء نظارة أنيقة
كالتى تلبسها المجندات الأمريكيات ، فلم أكن ألقى إلى أيهما

بالا . . إلى أن كان يوم كنت أهم فيه بدخول الحديقة ، فرأيتها مقبلة من بعيد في طريقها إلى الباب . . ثم توسط بيننا أناس حجبوا كلا منا عن الآخر لحظات ، فلما انحرفوا وجدتنى فجأة أمامها وجهها لوجه ، وهى تهتم باشة بمصافحتى . . ثم تجفل فى آخر لحظة مرتبكة ، وتبادرنى فى صوت رقيق : « معذرة ، حسبتك زوجى ، أقصد شخصاً آخر . . فلكم أنت تشبهه من بعيد ! »

« . . وكانت بادية الصدق فى لهجتها ، وفى حمرة الخجل التى لونت وجهها الخمرى الفاتن . . ثم ودعتنى بتمتمة خافتة وخرجت مسرعة !

« وطبعى أننى حرصت فى اليوم التالى على التبكير فى الذهاب إلى (محل المختار) . . ولم ألبث أن رأيتها وصاحبيتها تدخلان ، وتجلسان ، ولكن بدون أن يبدو على الأولى أن بصرها قد وقع على من قبل ! . . ففسرت ذلك بحذرهما ، أو رغبتهما فى نسيان ما جرى ، ولاسيما أن مظهرهما كان يوحي بأنها من شاباتنا المحصنات ، والمترفات . وفيما أنا أناملها ، بنظرات غير ملحوظة ، سطعت الشمس على خاتم ماسى فى أصبعها يخطف الأبصار ، وعلى «دبلة» الزواج !

« وصرت أراها كثيراً ، فى معظم الأيام ، دون أن أعبا بمراقبة حركاتها ، أو أفكر فى تلك المصادفة التافهة التى جمعت بيننا بضع

لحظات . وذات مغرب ، حانت منى نظرة إلى منضدتها ، حيث كانت جالسة بمفردها قبل هنيهة ، فإذا المنضدة خالية . وفي تلك اللحظة طراً ما شغلنى عنها كلية ، فقد أقبل الساقى يدعونى إلى داخل الفندق على عجل ، وإذا بمديره يرجونى الإسراع إلى غرفة فى الطابق الثانى لعلاج حالة مخص حادة . ثم فتح لى باب الغرفة ، وتركنى على عتبة . . . مبهوتاً !

« كانت صاحبتنا متمددة على «ديفان» كبير ، يغلف بدنها المشوق «روب» خمرى شفاف ، فى لون بشرتها ، وقد أغمضت عينيها ، ونسيت على شفتيها ابتسامة حاملة . . . ويظهر أنها حسبتنى مدير الفندق ، فلم تكذب تفتح عينيها وترانى ، حتى فوجئت ! . . ثم تمالكت نفسها وقالت ، بصوت ذابل :

- أهوانت ؟ . . إنى أحس . .

« ثم قطعت كلامها صيحة مكتومة نددت منها وهى تتلوى ، وبدنها يختلج بحركات ناعمة ، كأنها حية ترقص على الفراش . . ثم أردفت لاهثة :

- أسعفننى يا دكتور . . فإننى أخشى أن يكون مصرانى الأعور قد التهب !

« وعادت تتأوه ، وتزوى ما بين عينيها - كأنها من فرط الألم ! - حتى لم أعد أطيع . . وذكرت أننى دخلت الغرفة كطبيب ، وأنه ليس من اللائق أن تطول غيبتى فيها ! وخشيت فى الوقت نفسه أن

أفقد توازنى . . فأردت حسم الموقف بأسرع ما يمكن . قلت فى تهكم خفى :

- عفواً يا هانم . . ولكن يظهر أن فى الأمر لبساً ، فإننى طبيب . . بيطرى !

» . . وضغطت الجرس ، فلما أقبل الخادم ، قلت له جاداً :

- أسعف الهانم . . بكأس من الكونياك !

. . ثم حيثها وخرجت أنتزع أقدامى انتزاعاً ، نحو سيارتى . .

» . . على أنه كان فوق طاقتى أن أنسى ما حدث ، وما كان

عساه أن يحدث ! . . وأشفقت أن تكون تلك هى نهاية القصة . .

فلم يحىء عصر اليوم التالى حتى كنت أسرع إلى الفندق ، فأستفسر

من مديره عن صحة مريضة الأمس ، متوقفاً أن يجيبنى بأى جواب ،

إلا الذى فاجأنى به حين هز رأسه علامة الجهل التام ، ثم قال إنها

قد غادرت الفندق فجأة بعد خروجى ، كما حلت به فجأة فى صباح

اليوم نفسه . . فلم تقض فيه أكثر من سحابة النهار !

« واضطربت موازين الأشياء فى رأسى . . لم أستطع فهم السر فى

تكلفها كل هذه المشقة ، وتدبير تلك الحيلة «السادجة» ، للوصول

إلى ما تصل إليه غيرها بنظرة . . ودارت بى الأرض ، وتملكتنى

رغبة جارفة فى أن أسترده المرأة بأى ثمن ! . . فجلست أفكر فى

أمرى ، وأنا شبه محموم . . وإذا بى لا أصدق عينى : رأيتها تدخل

الحديقة ، وتجلس في ركنها المعتاد . . . فتقدمت نحوها متكلفاً هدوء
طبيب الأمس ، وبادرتها بالسؤال عن . . . صحتها ! . . . ولدهشتي
رأيتها تشكرني بابتسامة ما تزال «ودية» . . . على أنها سرعان ما قالت
في اضطراب ظاهر :

- اعذرني إذا لم أدعك للجلوس ، فإنني أخشى أن يرانا أحد !

«فوجدتني أجيبها بدون أن أعى :

- إذن سأنتظرك في سيارتي في الساعة الثامنة . .

«وخرجت إلى في الميعاد . . وكان الظلام قد هبط ، والكورنيش
قد خلا من مواكب المصطفين ، فانطلقت بالسيارة في الطريق
المظلم . . وإذا مرافقتي تجنب في جلستها متحاشية الاقتراب مني ،
ثم تتشاغل عني بالنظر إلى . . البحر !

«وأدهشني منها هذا التهيب ، الذي لا يتفق مع ما سبق من
مقدمات ! . . وازداد عجبى للتناقض الصارخ بين مظهرها
و«تصرفاتها» ، حين عرضت عليها أن نذهب إلى مشرب معين ،
فقالت على الفور :

- كلا ، لا أستطيع الجلوس في مكان ، فلنمض بالسيارة

قليلاً . .

« . . ثم عادت إلى الصمت والوجوم ، والتحديث في البحر

بنظرات شاردة !

«وتبادلنا بضعة أحاديث قصيرة ، لم تفض إلا إلى يقيني بأننى أمام مغامرة شاذة ! . . . وخيل إلى أن المسكينة فى صراع مع نفسها ، وأن عوامل كثيرة - أجهلها - لابد تتنازعها ، وتوقعها فى حيرة مرة . . . وكنا قد بلغنا (محطة الرمل) ، فقلت لها أخيراً ، وأنا أتوقع جميع الاحتمالات :

- أعرف ما يلزمك : جلسة فى مكان منعزل ، نستطيع فيها أن نتفاهم ، فى جو لا يعكره خوف أو قلق . تعالى معى يا . . ؟
« . . . فقالت على الفور ، كمن وجدت فى سؤالى عن اسمها خلاصاً من حيرتها بين رفض اقتراحى ، وبين الجرأة على قبوله :
- تستطيع أن تسمينى «شهرزاد» !

«ثم لاذت بالصمت . . . حتى أوقفت السيارة أمام منزلى ، ونزلنا ، فسارت معى صامته . . . وصعدت السلم صامته . . . ثم دخلت مسكنى ، وتهاكت على أحد مقاعد الصالون ، وهى صامته ما تزال !

«وخطر لى أن أبدد جو الوحشة الذى يسود بيت الأعزب ، والذى قد يزيد من تهيبها ، فأدرت مفتاح الراديو للتسرية عنها بموسيقاه . . . وإذا هى ترجونى ألا أفعل ، معتذرة بصداع مؤلم ! . . . وكان صوتها متعباً ، مشرباً بالانفعال المكتوم ، فاستأذنت فى التغيب عنها لحظات ، وقصدت إلى غرفة المائدة لأحضر لها شراباً ينعشها . . . ثم عدت بعد قليل وأنا أقول كلاماً فى امتداحه . . . لكنى لم أكد أدخل

الصالون ، حتى ماتت بقية الكلمات على شفتى ، فقد كانت
الغرفة .. خالية !

«وكان ذلك أكثر مما أحتمل .. ولم يخفف من لوعتى إلا عثورى
على حقيبة يدها فوق منضدة الراديو ، مما جعلنى أعتقد أنها لا بد
ستعود لاستردادها !

» .. ولكن ليس بالسرعة التى عادت بها !
«لم يكن قد مضى على «فرارها» أكثر من نصف ساعة ، حين
سمعت طرقات خفيفاً على الباب ، فإذا بالطارق هى ! .. أو قل
مخلوقة أخرى ، يشع وجهها الباسم إشراقاً ، وقوامها المياس
إغراء ، وهى مستندة بظهرها فى تراخ ودلال على زاوية الباب
المفتوح .. وكأنها مستلقية على أرجوحة ، لا تقوى على
النهوض .. وإنما تقوى على أن تقول فى لهجة فاترة ، والكلمات
تتكسر على لسانها ، والابتسامة الخلافة ترف على شفيتها وتلمع فى
عينها :

- ألا تدعونى للدخول ؟ .. أم أنى أزعجك ؟

«فقلت كالحائر :

- تزعجينى ؟ .. حاشاك .. وإنها أعترف أنك ربيت فى قلبى

الرجفة ، من توالى مفاجأتك !

فندت عن صدرها ضحكة كخبر المراء ، وقالت فى لهجة اعتذار

ناعمة :

- كم كنت حمقاء ! تصور أننى خفت .. هاهنا ..

فوجدتنى أسأله :

- والآن ؟

.. فلم تتردد ، وأجابت فى لهجة حازمة :

- لم أعد أخافك !

وثبتت عينيها فى ناظرى ، فى تحد ظاهر ، استشعرت منه أنها تستفز رجولتى .. وأنها تريد الوصول إلى غايتها ، من أقصر طريق !
.. وفى طرفة عين ، كنت قد احتويتها بين ذراعى .. وللحال أدركت سر اختفائها ، والتبدل الذى أصابها واستنهض جراتها : فقد كانت تفوح منها الآن رائحة .. الخمر !

« .. وصارت تحيئنى كل مساء ، ثملة لا تكاد تعى .. وحين تفيق ، تنهض فى إجفال - متجنبة أن يلتقى بصرانا - فتشرع فى ارتداء ثيابها وإصلاح زينتها .. ثم تأخذ سمتها إلى الباب متلصصة ، دون أن تنبس بحرف !

« وانقضت ثلاثة أسابيع على هذا المنوال ، لم تشذ فيها ليلة - فيها عدا أيام الجمعة التى كانت تتغيب فيها ، متعللة بأعذار مختلفة !
« وذات مساء .. لم تكد تحضر حتى اعتذرت بأنها تحس دواراً ، برغم كونها قد بدت لى أكثر مرحاً وانشراحاً من المعتاد ، ثم انصرفت بعد قليل .. وفيما هى تجتاز الباب ، استدارت إلئى ، وتوقفت

برهة - وعلى فمها ابتسامة غامضة - ثم مضت بغير أن تزيد شيئاً !
«وما كنت لأعلق أهمية على غموضها في ذلك اليوم ، لولا أن ذلك
كان آخر عهدي بها . . فلم أرها مرة أخرى !

« . . وعبثاً حاولت الاهتداء إليها ، أو معرفة من هي ، أو تعليل
اختفائها المفاجيء ، برغم تقليبي الأمر على مختلف وجوهه . . إلى
حد أن شككت يوماً في أنها قد ماتت ، لولا أن ذكرت وقفها الأخيرة
عند الباب ، فأدركت أنها كانت «تودعني» . . وأنها خرجت وهي
تعلم أنها لن تعود !

« كما أننى عبثاً حاولت فهم سر اقتحامها حياتى من البداية ! . .
كل ما أوصلتنى إليه استنتاجاتى - من الموضوع كله - أن «زوجها»
كان يوافيها في عطلة نهاية الأسبوع ، فيقضى معها يوم الجمعة ، ثم
يعود إلى مقر عمله المجهول . . كما أدركت - من سذاجة حيلها ،
ولجوئها إلى الخمر - أنها حديثة العهد بحياة الغواية ، وأنها قد
تورطت في هذه المغامرة على كره منها ، مدفوعة بدافع خفى ، ليس
هو الحب . . ولا اللذة . . ولا الانتقام من زوج خائن (وإلا لكأنت
تكون أكثر جرأة ، وأمعن تلذذاً بالتشفى وهي في كامل وعيها ،
وليست مخمورة) !

«وهكذا لم أترك احتمالاً إلا قتلته بحثاً ودرساً ، حتى كدت أصاب
بالخبل من فرط تفكيرى في أمرها ، وشوقى الدافق إليها . . فلقد

أحببتها بجماع قلبي ، ومازلت أحبها .. ولن أنساها ! .. آه لو
صادفتها مرة ، وعرفت منها سرها ؟!

وسكت محدثنا ، منها قصته .. ولم يعلق أحدنا بكلمة ، فقد
استنفد الراوى مجال كل تعليق .. وفيما هويهم بالانصراف ، لمحت
في عينيه أطيفاً من الظلال ، هى بعض انعكاسات الرغبة المجنونة
التي أيقظتها الذكرى في أعماقه .

(٣)

كان ذلك في الشتاء الماضى ، ولم أر الدكتور بهجت منذ ذلك
التاريخ .. حتى صادفته منذ أيام عائداً من إحدى حفلات المؤتمر
الطبي ، فجلسنا في شرفة أحد الفنادق .. وفيما نحن نتحدث ،
مرقت من باب الفندق الدائرى حسناء مصرية تضع على عينيها نظارة
أمريكية أنيقة ، لفتت انتباه صاحبي ، فقلت أمازحه :

- ماذا ، أما زلت تبحث عن حسناك الغامضة .. ربيبة أبى
الهل ؟

فقال في لهجة فاترة ساخرة .. كأنها من نفسه :

- تعنى شهرزاد ؟ .. لو تعلم ما حدث ، لأمنت معى بأن حواء
قد فاقت (أبو الهول) في غموضها : كنت أزور طبيباً من أصدقائي
منذ شهرور في مقر عمله بأحد مستشفيات القاهرة ، حين دخل

«تمورجى» يرجوه موافاة مدام «.. بك» فى الردهة ، كى تودعه
وتشكره قبل مغادرتها المستشفى .. فخف الطبيب إلى خارج
الغرفة ، تاركاً الباب مفتوحاً وراءه ، وإذا بى أتيت فى « مدام .. »
شهرزاد ، بلحمها ودمها ! .. فلم أشعر إلا وأنا أقفز من مقعدى
هارعاً إليها ، على غير وعى منى .. لكنها لم تكن بمفردها . كان إلى
جوارها رجل رجحت أنه «زوجها» ، فتداركت موقفى .. لكنها
رأتنى ، فاصفر وجهها بغتة ، حتى خيل إليّ أن قواها ستخور ..
لولا أن استحثها زوجها على الخروج ، مشفقاً عليها من التعب ..
فمضت معه ، متظاهرة بأنها .. لا تعرفنى !

« .. وأثرت إخفاء الأمر عن صديقى ، واستدراجه حتى يحدثنى
عنها . لكنه لم يحوجنى إلى استدراج ، فقد بادرنى من تلقاء نفسه
بمجرد أن عاد من توديعها .

- مسكينة هذه السيدة . منذ سنوات وهى تتحرق شوقاً إلى
النسل ، حتى لأذكر أنها جاءت تستشيرنى فى هذا الشأن مراراً ،
آخرها منذ عام ، حين طفرت الدموع من عينيها وهى تصارحنى بأن
زوجها لا يفتأ يهددها بالطلاق إن لم تنجب له نسلاً .. فأكدت لها
أن العائق ليس منها ، بل منه هو .. ولكن يظهر أننى كنت مخطئاً ،
فقد فوجئت بدخولها المستشفى منذ أسبوعين للوضع ! .. ولكن الله
ضمنَ عليها بأملها فى آخر لحظة ، فقد تعسرت ولادتها .. فولد
الطفل ميتاً !

«وتنهذ صديقي في حيرة ثم قال :
- أظنك رأيته مع زوجها . . وعلى فكرة ، ألم تلاحظ أنه شديد
الشبه منك ؟

« . . ووخزتنى العبارة ، فقد وثبت إلى ذهني فجأة كلماتها المماثلة
عند لقائنا الأول . . فلم أملك نفسي من التساؤل ، وما فتئت :
« ترى هل كان هذا الشبه هو «مفتاح السر» في المغامرة كلها ؟ » .

ووجم الدكتور بهجت لحظة ، ثم أردف في شرود :
- حقاً . . إن كيدهن عظيم !
فقلت ، وأنا أتمثل نهاية المأساة :
- ولكن كيد الأقدار أعظم !

(نوفمبر ١٩٤٥)

ضلال قلب

(١)

- جلال .. إنك تخفى عني شيئاً !

- دعى عنك هذه الأوهام يا سلوى ..

- أوهام ؟ آه لو تطلع عن عادتك هذه ! إنك دائماً تلجأ إلى

«مخدر» قبل أن تسقيني الحقائق المرة ! .. فهلا وفرت على نفسك

هذا العناء ، وأشركتني في متاعبك ؟ .. إنها غالباً تافهة .. إنك

دائماً تغالى ، وتخلق «من الحبة قبة» ! .. ومع ذلك فإننى لست

طفلة ، وقلبي قد نبت فيه الريش ، وصار فى وسعه أن يحمل عنك

بعض أثقالك .. جلال ! .. بالله لا تغضبني .. وتتعبني !

.. ورق نغمها وهى تدلله ، بهمساتها ونجواها .. ثم تناولت

رأسه بين راحتيها ، وأدارت وجهه إليها ، كى تقبل ما بين عينيه ..

فأيدت نظرتة شكوكها ! .. إن سحابة تخيم على حدقتيه .. إنه

مهموم !

.. ترى ما الذى يشجيه ؟ .. لو أنه أراح رأسه على صدرها ،

وأغمض عينيه ، وأفرغ أساه فى أذنيها .. كعادته ؟

.. لكنه ظل جامداً ، صامتاً ! .. وحين افترقا ، وودعته

بابتسامة قلقة ، أحس بنصل يمزق قلبه . . وبأنه ناغم على نفسه ، وضعفه ! . . إنها ثالث مرة يتأهب فيها لمكاشفتها بالقطيعة . . ثم يتخاذل ، فلا يجرؤ ! . . لم يكد يراها مطمئنة ضاحكة ، حتى ثقل لسانه ، فلم يتكلم ! . . لم يقل لها إنه إنما جاء لينعى إليها هواه الرضيع ، ويهيل عليه تراب السلوان . . فإن قلبه - هذا المتمرد الصغير الذى بيده زمام الروح ، والراحة ! - قد تحول عنها . . واتخذ له قبة سواها !

لم يقل لها شيئاً من هذا . . لم تطاوعه نفسه على أن يباغت بالصدمة قلبها البكر ، فيطفئ هذا الشغف الحنون الضاحك في عينيها ! . . فخرج طاوياً سره في صدره . . لكنه كان ينوى ألا يعود ! . . ومضى في الطريق القمر الساكن ، يقتلع خطواته اقتلاعاً ، وهو يحس أنه في كل خطوة يقتلع قطعة من قلبها . إن المسكينة لم تأت ذنباً ! . . لكنه هو أيضاً لم يرتكب إثماً . إن من حقه أن يفكر في سعادته ، وعقله يقسم له أنها لن تسعده . . بل إنه ليقسم له أيضاً أنه لم يحبها يوماً حباً خالصاً . . ما أحبها إلا بعينه وحواسه فقط . أحب فيها حسننها المشرق ، الذى أثمله ، ولمس فيه وتره الحساس : ولعه بالجمال ، واستجابته له أينما كان . . كما تستجيب زهرة (عباد الشمس) لمعبودتها ، وتتوجه بطلعتها أبداً إليها : كلما دارت تدور . . تجذبها إليها النار والنور ! . . إنه بدوره (عباد الجمال) ! فتنه في «سلوى» وجهها الصبوح ، الذى كأنها سوته الطبيعة

فى فجر يوم من أيام الربيع . . وبدنها الغض ، الذى كأنها صاغتة
أنامل فنان ، والذى طالما ألهب شبابيه فيه . . وذكره بقيظ
الصحراء ! . . بل لقد فتنه طهرها الحالم ، ودلاها الساذج . .
وروحها الوديعة ، كحمامة بيضاء ! لكنه لم يكن قد تبين حين هام
بها - كما يتبين الآن ! - أن حسنبا لن يكفيه ، وأنها من عالمين
مختلفين : بينها هوة يحلّو للناس دائماً أن يسقطوها من حسابهم ،
ويسموها «فوارق» التعليم والثقافة ! . . أما هو ، فيراها الآن هوة
سحيقة بعيدة الغور ، تحرمه من أسمى متع الزواج فى نظره : متعة
المشاركة الفكرية والروحية . إنه لن يقنع بغير فتاة ترفعها ثقافتها إلى
مستواه ، ويستطيع فكرها أن يخلق فى الأجواء التى يخلق فيها
فكره . .

ولقد طالما أوهم نفسه منذ عرف فتاته ، بأن فتنتها كفيّلة بأن
تغمض عينيه عن تلك الهوة . . تفرش فوقها بساطاً خلّاباً زاهى
الألوان ، يعينه على أن يعبرها ، ويلتقى وفاتنته وراءها . . لكنه حين
رأى قدمه توشك أن تزلّ ، أشفق على هنائه من التردى فيها ، فأجفل
فى اللحظة الأخيرة ! . . ووقف يرقبها من بعيد ، ويجالد قلبه
وضميره . . وطالت وقفته ، حتى أيقن أنه قد تخفف من هواه ،
واعتقل ضميره فى صدره ، فصحّ عزمه على أن يحببها تحبة
الوداع . . ويعود أدراجه ! . . نعم ، إنه لن يعبر الهاوية التى تفغر
فاها فى وجهه ، ويشاركها الحياة ، لن يتزوج من تافهة . . من دمية

«خرساء الفكر» ، لا يؤهلها جمالها إلا لأن تزين البيت . كلا ، إنه
يطمح إلى أكثر من هذا . . . وقد وجد أخيراً ضالته ! إن «الأخرى»
تعدّه بالهناء المنشود . . . لم يكد يقدم إليها في أحد المجتمعات حتى
بهرته شخصيتها ، ودأبهم إحساس من ينتقل بغتة من الظلمة الحالكة
إلى النور الذى يخطف الأبصار ! . . . أحس كأن أفكارها النيرة تنشر
حولها هالة من الضياء ، تغمر جلساءها . إنها جامعية ممتازة ، خلاصة
الحديث . . . تقرأ ، وتفكر ، وتسامر ، وتتصدر المجتمعات ، وتدير
دفة النقاش فى كل موضوع ، ببراعة استهوت ، وأشعرته بأنه قد وجد
المرأة التى تنعكس فيها جميع أحلامه . . . ولكنها أشعرته أيضاً
بإحساس آخر ، لم يخل أول الأمر من غضاضة : أحس بأن
«الصورة» الأولى التى طالما خلبه رواؤها ، قد فقدت ألوانها فجأة . .
وغدت - إلى جانب هذه - باهتة الشخصية ، مطموسة الظلال ! . .
بل أحس بعمق الهاوية التى كان مسوقاً إليها . . . فشكر للأقدار أنها
أنقذته منها قبل فوات الأوان ، بأن وضعت «هذه» فى طريقه . . !
. . . ولكن «طيفه الجميل» لم يضع سلاحه ، ويسلم بسهولة : فظل
قلبه مسرحاً لعراك طويل احتدم فيه بين الفتاتين ، حتى انتهى أخيراً
بهزيمة الأولى . . . فاحتلت «درية» قلبه ، بعد أن أجلت عنه
غريمته ! . . . وعندما أيقنت من النتيجة ، وأثملها النصر ، قبلت
أن تلتهأ الليلة - لأول مرة - لقاء غرام !
وأفاق جلال من خواطره ، وقد بلغ مكان اللقاء . .

- درية ! . . لقد مضت ستة أشهر وأنا أراك تزاددين تعلقاً بالنادى يوماً بعد يوم . . النادى ، النادى دائماً . . ولكن ، أبلغ بك الأمر أن تطلبى تغيير موعد لقائنا غداً كي تذهبى إلى النادى ! أما تكفيك بقية أيام الأسبوع ؟

- أوه ، إنك عصبى اليوم . . أو تريد أن تفوت على محاضرة البروفسور (. .) ؟ . . ومع ذلك ، أى فارق بين أن نلتقى فى الصباح أو بعد الظهر ؟

- الفكرة هى التى تحقنى . كنت أفضل أن أسمعك تعتذرين بموعد مع الخياطة ، أو الحلاق !
- أنت تقول هذا ؟ . . لكأنى أسمع جاهلاً يتكلم ! . . إن آراءك قد تغيرت !

- بل قولى إن أوهامى قد تبددت . . بددتها أنت !

- لست أفهم ماذا يضريك فى ذهابى إلى النادى ! ؟

- البيت هو مملكة المرأة . . وأنت لا تلمين به إلا فى أوقات الطعام والنوم !

- أو تريد من مثلى أن تطيق البقاء فى البيت ، وتشنيف أذنيها بصياح الأطفال ؟
- أطفال ؟

- أطفال جارتنا . مسكينة اعتدال ! إنها تعيش في جحيم لا يطاق ! تصور أن لها طفلين ، وهى لم تتزوج إلا منذ خمسة أعوام ! . . . إن زوجها لا يريد أن يشبع من «أكبادنا التى تمشى على الأرض» . . . أعوذ بالله ! . . . لكأن المرأة لم تخلق إلا لتكون آلة : تحمل ، وتضع ، وترضع ، وتطبخ . . . إلى آخر هذه التوافه ! ياويل الزوجة فى مصر من عقليات الأزواج . . . لكن الذنب ذنب اعتدال . إنها لا تخالف لزوجها رغبة ، أيًا كانت . . . تطيعه فى كل شىء طاعة عمياء . . . كالنعجة !

- الطاعة أجمل ما فى الأنوثة . وضعف المرأة هو كنزها الذى يفوق اللآلىء . . . (فى مرارة) بدأت أرثى لك !
- وأنا ضقت برجعتك . . . إنك . . .

لكنه بادر إلى تحويل دفة الحديث ، وقلبه ينضج مرارة . لم تكن تلك أول مرة تصدمه فيها آراؤها . . . لكنه اعتزم أن تكون الأخيرة ، فإن الثورة المختمرة فى أعماقه كانت قد آذنت بالانفجار ، وشوقه إلى «التحرر» من حبها قد صار لهفة مضنية . . . لم يعد يحتمل ثروة هذه المخلوقة التى لا تفهم الحب ، والأمومة ، وسائر عواطف النساء . . . هذه الأنثى التى أفقدها أنوثتها انطلاقتها فى مضمار الرجال ! إن عاطفته قد نضبت منذ علق بها !

. . . واشتدت عليه وطأة البلبلة ، فاعتزم أن يضع لآلامه النفسية حدًا : صارحها ذات ليلة بالقطيعة ، وقلبه يرقص فى صدره ، فرحاً

بالخلاص ! . . وأحس للفور أنه قد تخفف من حمل ثقيل .
.. إن رجولته لا تطيق غل الاستكانة لتمررد امرأة ، تناقش آراءه
وتخطئه ، وتلتحم شخصيتها مع شخصيته ، في كل مناسبة ، التحام
الند للند ! إن لذة الرجل القصوى أن يمارس مع المرأة إحساسه
بالتفوق ، وإحساسها بالضعف . في هذا إرضاء لرجولته ، وإشباع
لأنوثتها . . الأنوثة الفطرية التي ترحب بالقيود ، وتكره التحرر
والانطلاق !

.. وقد منحته سلوى كل هذا بوحى من فطرتها ، السليمة من
الزيف . مازالت تدفئه نظراتها الساخنة التي كانت تسكب فيها كل
قلبها . . لكم هو مشوق إلى حنانها الدافق . إن حنان المرأة هو -
لقلب الرجل - ماء الحياة ! ولكم يضمنه الحنين إلى حبها الساذج
وقلبها الكبير ، الذى يحنو على قلبه دون أن يشكو ، ويفهم مطالبه
دون أن يطلب . . من له بنغمها الناعم الحلوى هي تجيبه ، كلما سألها
رأيها فى أمر : « كما يروقك . . الرأى رأيك » . . بل لكم هو مشوق
إلى دموعها ! الدموع التى تفيض من قلب سخي بالعواطف ، والتى
طالما استقى منها كبرياؤه ، وأنمت فى أعماقه جذور اعتداده بنفسه ،
وجلده على الكفاح ، واحتماله للشدائد !

.. لكن المارد الذى خلقتة منه ، قد أحالته الأخرى قزماً ،
يشفق من الصعاب ولا يقوى على شيء !

.. فمن له بها ؟ إنه بحاجة إليها ، كيما يسترد إيمانه بذاته ، وحبه

للحياة .. لكن ، ترى أهى ما تزال تذكره ؟ وبماذا ؟ بالغفران
والحنين ، أم بالحق الدفين ؟ .. لكنه يعرف قلبها ، لا يقوى على
أن يحمل ضعفاً لإنسان !

وكانت قد مضت أيام ، أحس بعدها أنه قد اغتسل وتطهر من
هواه البغيض ، للأخرى ! .. فخرج ذات مساء ، ووجهته :
بيتها ! إن قدميه تعرفان الطريق ، وإنهما لتخفقان فوق أرضه
خفقات طروبة ، كأنهما هما مشوقتان مثله إلى الحى ، والديار ! إن
قلبه ليضطرب فى صدره حيناً ، وفرقاً من اللقاء .. إنه عائد إلى
سلواه !

وأرسل الانفعال الدموع إلى عينيه ، فجففهما بأنامله ، ومضى
يغذ السير .. لكأنه لا يمشى على أرض ، وإنما يطير على بساط من
سحاب .. وبرغم ذلك فقد طال الطريق !
.. أخيراً بلغ بيتها !

(٣)

- جلال ! .. أهذا أنت ؟ كدت لا أعرفك .. وما هذا النحول
الذى أصابك ، والذبول الذى أرخى أجفانك .. ؟
- وأنت يا سلوى ، ما بال الشحوب قد تخطف ورد خديك ..
وأطفأ بريق عينيك ؟

- إننى بخير . ولكن قل لى ماذا دهاك . . أبلغ بك الإجهاد أن تنسى نفسك ؟

- إننى متعب يا سلوى . قلبى قد غوى ، وأضلنى معه . . لكنه عاد نادماً ، فهل تقبلين توبته ؟
- وهذه الدموع ! . . أما تحجل ؟

- إنها دموع الفرح . . لا أصدق أنك تبسمين فى وجهى . . يخيل إلى أنها محض رؤيا جميلة . . سلوى !

- صه ! دعنى أجفف دموعك . . بشفتى ! . . جلال . ضمنى إلى صدرك . قل إنك لن تتركنى . . مرة أخرى !

- اطمئنى يا حبيبتى . . كان لابد للطير أن يعود إلى وكره ، ليحمى أنثاه الضعيفة . . ويريح رأسه على صدرها الحنون !

(يناير ١٩٤٦)

عيون حالمه

فى معرض للتصوير ، وقفت منذ أيام أتأمل صورتها طويلا . .
وفى دليل المعرض عثرت على العنوان الذى أطلقه عليها
مصورها : « عيون حالمه » ، تصوير « فريد » . .
يا للمسكين . . إنه ما يزال يذكرها !

عندما عرفنى به صديقى الدكتور شاكى ، لمحت فى عينيه أنه
يتألم . كان الملل من الحياة ناطقاً فيها يتكلم ، ويقول : إن المسكين
يحيا ، ولكن برغم إرادته !

وحركت نظراته فضولى الفطرى ، وميل إلى دراسة الوجوه
والنفوس . وددت لو أصل إلى أعماق هذا الفنان الشاب ، لأسبر
أغوار نفسه . .

ومرت الأيام . . حتى اقترح على الدكتور شاكى ذات مساء ، أن
نمر على « فريد » كى يلتقط لنا صورة . . وطال بقاؤنا فى الاستوديو
إلى ما بعد مواعيد العمل ، فجلسنا نسمى ونتحدث ، فيما يروق
الحديث فيه عادة ، بعد إجهاد العمل طوال اليوم . وتشعب بنا
الكلام إلى بحث ألوان العواطف التى يفرزها القلب البشرى . .

وحلا للدكتور شاكر أن يداعب صديقه ، فقال :
- دعونا من هذا ، وحدثنا أنت يا سيد فريد عن اختباراتك واسعة
النطاق . ترى كم أحببت من هؤلاء الفتيات الجميلات اللواتي
تزين صورهن جدران الأستوديو ؟

كيف أصف أثر هذه الدعابة في نفسية فريد ؟ لقد قابلها أول
الامر متكلفاً ضحكة استهتار ساخرة ، ثم ما لبث أن شرد منا فترة ،
بدا فيها كأنها يجمع شتات نفسه ، وبدأت نظراته كأنها آتية من
بعيد . . . حتى تنبه أخيراً إلى أن انتظارنا قد طال ، وأن أسماعنا معلقة
بفمه ، فقال :

- أكنت تمزح يا شاكر ؟ يا بختك ! لقد كنت يوماً مثلك ، حرّاً
طروباً بلا قلب ، أعشق كل امرأة فاتنة ، كما أحب كل زهرة
عطرة ، أو فاكهة شهية ، أو صورة جميلة ! . . . وعشت هكذا
أعواماً ، متوهماً أنني قد عرفت الحب مرات ومرات ، وأننى - دون
الناس - قد أفلحت فى الاستمتاع به مجرداً عن سائر قيوده
وأشواكه ! . . . وكم سخرت من أشجان الهوى ، وكم هزأت بنزوات
المحبين ! . . . ولكن « كريمة » بدلت كل شىء . . . إننى حين أفكر
فى حاضرى ، وتقسو على قلبى آلامه ، أتمنى لو أننى لم أعرف
الحب ، ولم أعرفها ! وأجدنى أحن إلى نسيمات « الميل » الهادىء
الذى كنت أحسبه « حباً » ، والذى طالما نعمت به قبل أن تبده
العاصفة . . . نعم ، ولكنى لا ألبث أن أقتلع الندم من جذوره حين

تشتعل في حسى نشوة السعادة الدافقة التى غمرتني بها كريمة ،
فأحس أن آلامى قد غدت شفافة ، تسمح لى بأن أعيش وراءها في
الماضى القريب ، قانعاً بأن أجترّ اللحظات الخالدة التى نفحنى بها
حبها ..

.. كنا دائماً نلتقى في مشرب للشاي ، قريب من هنا ، ثم نخرج
إلى إحدى الضواحي الهادئة : صحراء هليوبوليس ، أو الهرم ، أو
ضفاف النيل في الجزيرة .. ونسير متلاصقين نتهامس ، أو ننصت
للطبيعة وهى تهمس بأحاديث الجمال والسحر والحب .. حتى
نتعب ، فنجلس على أحد المقاعد الخشبية المتناثرة ، كى تغنى لى
كريمة بصوت خافت سماوى أغنية رقيقة من أغانى الراديو أو الأفلام
المحببة إلئى ، وأنا أهيم فى عينيها الحاملتين اللتين كانتا تحكيان لى فى
كل جلسة حلماً جديداً ، وأملا أعذب من نسيم الفجر ، مسكراً
كمطر الربيع ، ناعماً كأوراق الورد ، وكبشرة خدها الخمرى ..

« وكم كان خدها حلواً ودافئاً على الدوام . كلما نظرت إليه كنت
أحس كأننى ألصق وجهى بوسادة من الريش ، مكسوة بالحرير !
.. وبقدر ما كانت الوسادة ناعمة ، كانت اليقظة دائماً
ترعبنا .. كنا نخشى أن نفيق ، ونشفق من الفراق ، فنراوغ ..
ونظل نراود الدقائق عن سيرها ، ونتملقها أن تقف ، ليطول لقاءنا
ويبقى أيضاً .. ولو لحظات !

.. آه ، كيف يجترىء أحد على أن يتهم الحب بشراً أو خطيئة !
إن قلبي - الذى كان قبل أن تملأه كريمة لا يعبد غير ذاته ، وغير
الشيطان - قد غدا منذ عرفتها متبتلاً ، يخر فى صدرى كلما لقيتها ،
ساجداً لله فى خشوع ، شاكراً للسماء أنها وهبته حاضره السعيد ..
متعبداً لها كي تديمه عليه .

.. وكما علمنى الحب الشكران ، علمنى الإحسان ، حين كنا
نتمشى ذات مغرب جميل ، ومررنا بمتسول ضرير كان يحاذى سور
إحدى الحدائق الأنيقة ، وهو يتلمس قضبانه بأصابعه المرتعشة ،
وفى يسراه عصاً يدق بها على الأرض دقات واهنة كجسده الهزيل ،
الذى خيل إلى أن منظره كان الغصة الوحيدة فى حلق سادة المنزل
وهم يتناولون الشاي فى الحديقة فى استرخاء ، كأنها يستجمون من
عناء الراحة ! .. ورقت كريمة لمراى الضرير ، فضغطت على ذراعى
وهى تقول بصوت ذاب فيه الإشفاق والحنان :

- أترى يا فريد هذه المفارقة الأليمة .. هذا السور الذى يفصل
بين النقيضين : فى الخارج أعمى جائع ، حافى القدمين ، بالى
الثياب ، حرمة الدنيا كل شيء .. وفى الداخل ورود وعطور ،
وسلم من رخام ، وقصر يضيق بالمقاعد المريحة والفراش الوثير ،
ومخازن الثياب ، والطعام الشهى ، والحياة الناعمة .. ترى ماذا
جنى هذا التعس أو جنى أبواه ، وماذا أتى أولئك من أفضال ؟
.. وقبل أن تسترسل كريمة فى خواطرها ، وجدتني أسخو على

الضرير بالعطاء ، وأسارع معها بالابتعاد . . فقد أحسست بقلبي يرق حتى ليضنني ، أنا الذي لم أكن أفهم الألم ، أو أقدر الحنان ، والغفران ، والبر ، والتسبيح . . وعشرات غيرها من المعاني الرقيقة وإحساسات الناس التي ألهمتنى كريمة أن أراعيها ، وهي ترعاني بنظراتها الساخنة التي كانت تنضح بالعاطفة ، حتى لتكاد تعطيني في كل نظرة . . قلبها بأكمله !

. . آه . . لماذا خلق الله لنا ذاكرة ، تعي ظروف الألم أكثر مما تعي ساعات السرور ؟ . . إن ذاكرتي كثيراً ما تتجاهل البداية السعيدة لقصتي ، ولكنها لا تعفيني لحظة من مرارة النهاية . . فقد غابت عني كريمة يوماً ، فأياماً ، تبينت خلالها قسوة ما كانت قد فرضته عليّ من الجهل التام بكل ما يمكنني من لقاءها كلما أردت أنا ، لا هي !

. . وهكذا بقيت حائراً ، أنتظرها كالمجنون ، ثلاثة أسابيع . . حتى وصلتني منها هذه الرسالة ، مبللة بالدموع :

« يا فريد . . أعلم أنك لن تغفر لي هذا الغياب الطويل ، فكيف لو علمت أنني لن أعود ؟ . . لقد خدعتك يا فريد . . أخفيت عنك أنني إنما أحببتك لكي أنتقم لكرامتي من الرجل الذي هويته فانصرف عني ، أو ظننت أنه فعل ، حتى عاد منذ أيام ليخطبني ، نادماً مستغفراً . . فصفحت عنه ، بعد إلحاح قلبي الذي لم يكن قد نسيه ! . . فاغفر لي يا فريد أنني . . سأتزوج ! أو

فحاول أن تكرهنى وتنسانى . . الوداع يا فريد ! .
وفرغنا من الرسالة والتفتنا إلى فريد ، فإذا الدموع تهيم في
عينيه ، في حين تهيم نظراته في عينيها هى ، وهو يتأمل صورة كبيرة
لها كانت بين يديه !

قلت للدكتور شاكر ، ونحن نسير معاً في شارع قصر النيل قبيل
منتصف تلك الليلة ، بعد أن ودعنا فريد :

- إنك قد اضطربت حين رأيت صورة كريمة . . ترى هل كانت
لها قصة معك أنت الآخر ؟

قال :

- نعم ، ولكنها قصة من نوع آخر . . فقد تذكرت هذا الوجه . .
إنها قد كذبت عليه ، كى يكرهها وينساها ، في حين لم يكن خطيبها
إلا . . الموت ! . . لقد رأيتها قبل زفافها إليه بساعات . كان
يترصدها في إصرار ، ليأخذها معه . . لعلك فهمت أنها كانت
مريضتى ، فقد لبثت أكافح (التيفود) ثلاثة أسابيع ، ولكن الموت
غلبنى واستأثر بها . وقبيل وفاتها ، كنت أعودها ، فانتهزت فرصة
خلو الغرفة من أهلها ، وطلبت إلى وهى تبكى أن آتى لها بورقة
صغيرة كى تكتب كلمة وداع ، لرجل . . بعد أن رجتنى أن أصون
سرهما عن ذويها !

وسكت الدكتور شاكر ، وكان الترام قد وصل ، فمضى ..
ومضيت ..

ومضت شهور .. حتى وقفت منذ أيام في معرض التصوير ،
أتأمل صورتها طويلا .

ومر بخاطري فريد .. يا للمسكين ، إنه لا يعلم أن العيون
الحاملة قد كفت عن أن تنسج الأحلام ، وأنه لم يبق منها إلا هذه
الصورة الراقدة في إطارها الأسود ، الذي تراءى لى - وأنا أبتعد -
كأنه « نعش » ، قاتم ، بغيض !

(نوفمبر ١٩٤٣)

نادية

(١)

النهار قد أوشك أن ينطفئ ، وضياؤه قد بدأ يبهت في الفضاء
العريض ، ويدوب ذرة فذرة في الظلام . . والسيارة ماضية بهما ،
تلمس سبيلها على هذى الظل الهزيل الباقي من الضياء ، وتتعثرفي
الأشباح الباهتة المتتابعة التي ألقته أمامها - على أرض الطريق - كتل
المباني الصماء . . وجذوع الأشجار . . وأعمدة المصابيح المطفأة ،
التي لم يكن النور قد صعد بعد إلى عيونها الزرقاء ^(١) . .
. . وكان شبح الصمت الأخرس قد ضاق بنفسه ، وبالموت ،
ونهشت الغيرة قلبه ، فخرج من حيث يقطن بين القبور - في هيئة
أحدب كرية - يسعى إلى أرض الأحياء ، ليتصيد عاشقين يندس
بينهما كعادته ، متطفلا على خلوتها ، كأنها يَنْفُسُ على المحبين
نجواهم ، ولا يعبا بما سيكون من حسابه العسير مع آلهة الهوى ،
جزاء ما اقترف من آثام !

ولاحت له السيارة ماضية بـ «نادية» و«سامي» ، تتحسس

(١) كانت مصابيح الشوارع مطلية باللون الأزرق ، أثناء الحرب العالمية الثانية

طريقها وتتعثّر ، فانسل إلى داخلها حيث يجلسان ، وقبع بينهما يرهف سمعه لنبضات قلبيّن جاشا بالعاطفة ، فتحررا من صاحبيهما ، وراحا يعدوان . . كل على هواه : قلبها يسبقها إلى الأمام ، ويطوى الطريق ، متعجلا الوصول . . وقلبه هو يشده إلى الوراء ، متخلفاً عن الركب ، بإسطاً ما انطوى من الطريق الذى قطعاه . .

وغاب سامى عن نفسه ، وصرخت نفسه فيه :

«أما ترى يا سامى : هذا الكيان الناعم . . هذا الجبين الراضى ، والنظرات الوداعة ، والشفاه ؟ تأمل «نادية» يا سامى ، وتملّ من شبابه النضير ، فها هى ذى أخيراً إلى جوارك ، فى هذا الثوب الفاتن الذى طالما حلمت بأن يلمس كتفك ، فتسمع حفيفه ناعماً قرب أذنيك . . ها هو ذا حلمك العذب قد تحقق . . فما أسعدك !»

وصرخ سامى فى أعماقه : « كفى بالله يا نفسى . . اصمتى ! »

(٢)

ومضى صوت يهمس له :

« . . إنك لتذكر يا سامى أول مرة استراح فيها بصرك المتعب على هذا الجبين الراضى ، والعيون الوداعة ، والشفاه . . كنت قد دعيت لتناول الشاي عند أسرة صديقة ، فترددت . . ثم أجبت

الدعوة في فتور ، فإن روحك المضناة كانت ما تزال تلهث ، عقب
مطاردة عنيفة للهناء .

«الهناء ؟ .. ويلك يا سامى من هذا الظبى ، الشارد أبداً من
الإنسان .. إن متعته الكبرى أن يقسو في مداعبة مطارديه ، فيتباطأ
ويتمهل ، حتى إذا ما قاربوه ، وهموا باقتناصه .. أطلق نجاة
لجموحه العنان ، وراح يسابق الريح .. تاركاً عشاقه
يخورون ، ويسقطون صرعى وهم كاذب .. وأمل قد خاب !

« وكنت يا سامى واحداً من صرعاة ، سقطت تتلوى على أثر
حب فاشل قديم ، اعتصرت فيه عواطفك وأعصابك مدى عامين
كاملين ، حتى خاب ، قفطمت قلبك عن هواه ، وصفدته بأغلال
الرجولة والكبرياء .. ثم نجحت في أن تقتل إيمانه ، فكفر بالمرأة
وبالحب ، واستكان لحرمان طويل .. ورحت تنشُد السلوى في
العمل المتواصل ، فخصصته بكل وقتك ، وجهدك ، ونسيت أن في
الدنيا غير التعب والجهد .. ونسى قلبك الانفعال !

«حتى استراح بصرك - وأنت تتناول الشاي في منزل الأسرة
الصديقة ، مع نفر مختلط من المدعوين - على هذا الجبين الوضىء ،
والعيون الوادعة ، والشفاه .. وداعب سمعك صوت «نادية»
وضحكاتها الناعمة وهي تخطو إلى الصالون ، معذرة عن تأخرها
لصاحبة الدار .. فانتشيت يا سامى ، كأنها براحة خفية ، وتملكك

انتعاش غريب . . وكما تقلب اسطوانة على وجهها الآخر ، تغيرت الدنيا في عينيك : أحسست فجأة أنها دنيا جميلة وعذبة ، إلى غير حد . . وأن عروقك تنبض بالحياة ، والقوة ، والشباب الذى لا يعترف بالصعاب ، ولا يقف بينه وبين غايته شىء !

« . . ولو قيل لك لحظتئذ أن فى الحياة أحزاناً وكروباً وآلاماً ، لرثيت لغيرك ، وهزأت بالخوف ، فقد شملك إذ ذاك اطمئنان غريب ، ويقين بأنك فوق متناول تلك المكاره ، أو غيرها مما يصيب وينغص الناس . . !

« . . كيف تفسر يا سامى ما أصابك ؟ وتلك الانفعالات البهيجة الخاطفة التى اختلعت وتتابع حشدها العجيب على خاطرك ، فى طرفة حس ، فى أقل من لحظة ! (كما أدركت ذلك على الفور عندما تبينت أنك قد بلغت قمة الانشراح ، قبل أن يجيء دورك فى مصافحة يد الضيفه القادمة . . اليد التى مدتها إليك وهم يقدمونك إليها بين كلمات التعريف المألوفة) . . ؟

« . . وكم تراخت تلك اليد واستكانت طويلاً فى يدك ، عندما بدأ الرقص بعد حين ، فمنحتك نادية خصرها فى بساطة ، دون دلال بغیض أو اعتذار كاذب . . ورحتما تدوران على الأنغام الناعمة لأغنية «الحمامة العاشقة» - «لا بالوما» - التى كان الراديو يبعثها عذبة حنوناً ، كنظرات نادية إذ ذاك . . نظراتها التى تعلقت بفمك ،

متسائلة في صمت عن سر صمتك ، أنت الذى تفرض عليك اللياقة
أن تبدأ الحديث !

«ولكنك كنت تحلم يا سامى ، فأطال الصمت مقامه بينكما .
وكم كان عذباً ومحبباً حينذاك ، وهو فى قناع طيف باسم يحذب على
المحبين ، ويبارك أحلامهم !

« . . وأفقت من حلمك يا سامى بعد حين ، عندما استأذن
الصمت منكما فى الرحيل ، على صوت نادية تسألك :
- ما بالك ؟

« فأجبتها معتذراً :

- لا شىء ، لا شىء . . سوى أنى سعيد ، أكثر من اللازم ،
فقد كنت أحلم !

- تحلم ؟ . . وبم ؟

- بعش جميل على النيل فى العراء ، مفتوح للرياح والطيور
والضياء . .

« ثم أضفت فى شرك : «ولك أنت» ، فقد أشفقت أن تقولها لها
قبل الأوان ، فتلومك نادية . . ولو فى ضميرها !

« . . وماجت الأنغام ، ورق هديل «الحمامة العاشقة» ، كأنها
الوجد قد أضناها فذابت لهفة على أليفها الذى فارقت ، عندما هبطت
إلى الأرض كى تغرد للبشر التعساء . . ورق بين يديك الكيان الناعم
الذى كنت تراقصه ، والذى ما كان يشعل البدن بقدر ما كان يشعل

الوجدان والروح . . ورقّت روحك بدورها ، فانفلتت نظراتك منك
لتلثم الوجه الوديع الذى يطالعك . .

«وماجت مشاعرك مع النغم ، فغبت عما حولك يا سامى ،
سابحاً فى ذلك المحيط العميق ، المتلاطم المشاعر والخلجات - محيط
نفسك - وغصت فى أعماقك تبحث عن لآلىء غالية ، جديرة بهذا
الجيد الفاتن الذى أمامك ، كى تقدمها مهراً إليها . . وتطارد
الأحياء السامة التى لا تخلو منها قاع نفسك ، كى تقتلها قبل أن
تدعونا دية إلى حياتك . . وكم يذكى فيك الحسن الرفيع من طموح
وتوثب يا سامى !

«وعندما خفّت هديل الحمامة الوحى ، وهى تودع الأرض لتطير
إلى عشها السعيد ، وأليفها ، تضرع إليك قلبك فى مذلة ، أن تطلقه
ليغنى هو الآخر لأليفته . وبرغم أنه كرر توسلاته طوال الأمسية ،
وأنت تراقصها مراراً . . وبرغم أنه بكى فى صدرك وهو يؤكد لك أنه
قد سمع صدى لنبضاته فى قلبها ، وأن الفتاة - على الأقل - لم
تستبشعك . . فإنك نهرته ، وخرجت ليلتها يا سامى فخوراً
بالكتمان ، مدثراً هواك الوليد فى أكثر من قماط !

«وحين طالعك الطريق السابح فى الضياء الساجى ، وعدك
القمر بأن يبارك حبك ، وأحسست بيد رقيقة تمتد فى رفق إلى قلبك
الحبيس ، لتفتح فى سجنه كوة ، تدفق منها سيل من النور الناعم ،
أغرقه فى الهناء ، وبعث فيه إيمانه المفقود . .

.. ولما لمحت سيارتك رابضة تنتظرك أمام الباب ، ككلب
أمين ، ربت بيدك عليها في رفق ، موصياً أخاك أن يعود بها . فإنك
تؤثر العودة على قدميك ..
.. ثم سرت في الضياء !

(٣)

«ونما هواك الوليد - يا سامى - فى القهاط ، ورحت ترضعه من
نظرات نادية ، كلما صادفتها فى منزل الأسرة الصديقة بين الحين
والحين .. ومضت أسابيع وأنت فخور بالكتمان ، قانع بأن تزود
عينيك من محياها الوضىء - وأنت تراقصها فى كل مرة - بها يكفيك
أياماً ، حتى يتكرر اللقاء .. وكلما تملل قلبك ، ولأمك على
جمودك ، أمهلته بحجة معسولة ، طالباً فرصة أخيرة .. فى كل مرة !
» .. حتى كان ذلك اليوم المشئوم .. السعيد .. كنت فى بهو
منزلك بعد الغداء ، مستلقياً على مقعد طويل ، يتجاذبك تخدر لذيد
ويقظة هائلة ، وتحلم بأثاث بهو العش الذى سيضمك مع نادية فى
المستقبل السعيد ، وكأنها إلى جوارك تنسج لك صداراً من
الصوف ..
» .. ودق جرس التليفون .. فأمسكت بالساعة فى تراخ ،
متسائلاً عمن هناك ؟ ..

«لماذا يا سامى تختار الحياة دائماً لضربنا فى الصميم ، بمطرقتها

القاسية ، الوقت الذى نبلغ فيه قمة الرضا عنها . . وتضحى قلوبنا
أبعد ما تكون عن توقع الصدمات ، والتهيو لدفعها ؟ . . لأنها
حسود ؟ أم أنها تخشى أن تفيض بنا السعادة ، فتنسى أننا من
التراب ، ونتجبر ؟ . . إنك لا تدري ، وإن كنت تذكر ما حدث
وأنت تضع الساعة على أذنيك . . لقد تبينت الصوت الحبيب ، على
غير انتظار ، فهتفت من فورك :
- نادية ؟

- نعم ، أهذا أنت يا . . فتحي ؟
« ووجدت نفسك يا سامى ترد بالإيجاب ، دون وعى ، منتحلا
شخصية أخيك الأصغر . . ثم سمعتها تقول بصوت يغلب عليه
الحنان :
- لماذا لم تحضر حفلة الأمس . . أما وعدتني ؟ لقد انتظرتك
طويلا !

« واعتذرت لها يا سامى بكلمة رقيقة ، وتحجرت في عينيك
دمعتان . . إذن فهو أخوك من . . اختارته ؟
« كيف لم تفكر في هذا من قبل يا أحق ؟ . . لقد عرفتياها في
أمسية واحدة ، فلماذا بربك تأخرت ؟

(٤)

« . . والآن يا سامى ، أما تتملى من هذا الشباب النضر : هذا
الجبين الوضىء ، والنظرات الوادعة ، والشفاه الحاملة ، والجسد

الناعم ؟ هاهو حلمك السعيد قد تحقق ، وما هي نادية أخيراً إلى جوارك ، في ثوبها الفاتن ، الذى طالما حلمت بأن يلثم كتفك ، فتسمع حفيفه قرب أذنيك . . فقط ، أوص قلبك بأن يخافت من دقاته قليلا ، وأنصت لدقات أخرى . . أما تسمع دوى الطبول في أذنيك ، والموسيقى تعزف من بعيد ؟ . . كلا ؟ إذن فلتصبر قليلا ، فإن الهواء لن يلبث أن يحمل إليك أنغامها ، مترفقا . . إنكما تقتربان من منزلك ، حيث ينتظركما الزحام الطروب ، والهرج والغناء ، وموائد الوليمة . . وحيث فتيات الشرف ينتظرن مقدم العروس . . نعم ، فالليلة ليلة الزفاف يا سامى . . زفاف نادية وزفافك !

» . . ولكن تمهل ، لا تفرح إلا بقدر ، فإنك المنيوذ ! . . إن نادية ستزف بعد لحظات ، إلى فتحي . . أما أنت فستزف ولكن إلى الحرمان يا سامى ، فإن القمر الذى وعدك أن يبارك حبك ، قد احتجب . . ! كأنها أخجله أن يخلف الوعد !

» . . وحتى رفقتك السعيدة لنادية ، التى بدأت عند منزلها ، ستنتفضى سريعا ، عند باب منزلك ، حين تسلم الوديعة الغالية إلى صاحبها ، ويأخذ فتحي منك نادية ، إلى الأبد !

» . . والقبلة التى طالما منيت بها شفتيك . . ستناولها أخيراً

الليلة ، بعد الزفاف ، ولكن على «جبينها» الوضىء !

» تجلّد يا سامى ، واعذرهما ، فإنك الملموم . . وانطواؤك هو الذى دمرك ، وسيدمرك ما لازمك . . إنها يجهلان شرك المكظوم ،

فادفنه يا سامى ، ادفنه إلى الأبد . . ودّع نادية فى جهلها السعيد ،
فإنها طيبة ، وقلبها لن يتحمل أن يسعد لتشقى ، أنت أو غيرك . .
وكبرياؤك لن يقبل منها نظرة « عطف » أو « رثاء » !

« فلا مفر إذن : أغلق قلبك على هواك الموءود ، وأعدده إلى
محبه . . فإنه قد خلق للهوان ، واعتاد الألم . . ولن يلبث أن
يتبلد ! . . فقط ، ساير كبرياءه ، أوهمه أنك لا ترقبه ، وشجعه على
أن يغسل شجنه فى البكاء . . وابك أنت معه ، ولكن فيها بعد . .
أما الآن ، فتجلد يا سامى ، وارفع رأسك ، وابتسم . . للحمامة
الوديدة التى توشك أن تطير ، إلى عشاها السعيد ! »

(٥)

وانسلّ آخر خيط من الضياء من قلب سامى ، تاركاً الظلام يطبق
عليه ، كما أطبق على الفضاء العريض . . ومضت السيارة بهما تطوى
الطريق ، على هذى مصباحيها المضيئين ، بعد أن استراحت من
أشباح المباني ، والأشجار ، والمصابيح القائمة على جانبي الطريق ،
إذ كان الظلام قد ابتلعها جميعاً ، مغرقاً الطريق كله تحت أنفاس
شبح واحد عريض !

. . ولم يدر سامى إن كان قد طال الزمن أم قصر ، قبل أن يتبين
الشبح الأخير - شبح الصمت القابع بينهما - إنها ليسا بعاشقين ،

وإنه قد أخطأ الهدف . . فلاذ بالفرار ، على صوت نادية تقول ، وقد
أفاقت من تأملاتها في الغد السعيد :

- ماذا يا سامي . . أما تريد أن تقول لي شيئاً . . ما بالك
صامتاً ؟

فأجاب كالحالم :

- لا شيء . . لا شيء يا نادية ، سوى أن الهناء قد فاض بي ،
عندما رأيتك في هذا الثوب الأبيض ، الناصع كقلبك ! . . ها قد
وصلنا ، فابتسمي يا نادية ، للسعادة التي تنتظرك بين ذراعي . .
فتحي !

. . وابتلع دمعين ، كانتا في طريقهما إلى عينيه !

(يونيه ١٩٤٣)

العيون السوداء (من يوميات شاب حالم)

(١)

٢٠ أكتوبر سنة ١٩٤٦

لا جديد ! .. وماذا يمكن أن يجد في حياة موظف بسيط ، يزامل الوحدة في مسكنه بإحدى عمارات (الجيزة) ، قريباً من عمله ؟
إن الأيام تمرّ بى متشابهة ، فقد أضحت حياتى قائمة خاملة ،
ليس لها طعم ، ولا روح .. ولا غاية .
إننى حى .. ولكننى لا أعيش !

٢٧ أكتوبر

خطرت لى اليوم فكرة مبتكرة بشأن كهربية خط حلوان . فكرت
أن أعرضها على المختصين فى الوزارة ، لعلى أنقل إلى القسم الننى ،
بدلاً من عملى هذا الذى لا صلة له بدراستى السابقة ..
ولكننى عدلت ...

لقد ألفت حياة الخمول والتواكل التى أحياها !

أول نوفمبر

مالى تدمرت !

كنت ذاهباً أمس إلى المقهى ، فلمحت فى « فترينة » أحد محال
الأسطوانات عنوان لحن استوقف نظرى . وقفت جامداً أهدق فى
اسطوانة « العيون السوداء » Les Yeux Noirs ، ذاهلاً عن المطر الذى
بلل معطفى ، ثم تنبّهت أخيراً على صوت باب المحل وهو يغلق ،
فأسرعت بالدخول . . . وابتعت الأسطوانة ، وحملتها إلى البيت . .
لاشك أن منظرى كان مضحكاً وأنا أحنو عليها طوال الطريق ،
وأضم عليها أصابعى ، خشية أن تنزلق !

وأسرعت إلى الجراموفون أنفض عنه الغبار ، وأديرها عليه . .
عجباً . . من كان يظن أننى أبكى ؟ !

لم يكد صدى النغم الأخير يموت فى أذنى ، حتى أحسست
بالدموع تتجمع فى عيني ، فتركته تفيض . . لقد أثار اللحن
أشجانى من جديد ، وأعاد إلى حواسى صوراً كانت قد بهتت
وحالت ألوانها ، بعد أن أتحفت حياتى بلحظات خالدة ، منذ ستة
أعوام . .

ووجدت نفسى أحن إلى الماضى بكل ما فيه من لذات وآلام ،
نعمت بها وشقيت ، أياماً لن أنساها !

هيه . . لا أقل من أن أنيش الذكريات ، وأعود . . إلى

الماضى !

٧ يوليو سنة ١٩٣٩

عدت إلى « البلد » منذ يومين لقضاء فترة الصيف فيها مع أسرتي ، لأول مرة منذ أربع سنوات . . منذ غادرتها إلى القاهرة لدراسة الهندسة ، التي لم يبق على انتهائى منها سوى عام . وبدأ الأقارب والأصدقاء يفدون على منزلنا مهنيين ، متزاحمين على دعوتى للغداء والعشاء و . . . دون أن يتركوا لى فرصة للتملص أو الاعتذار . ما أعجب شعور الناس هنا فى أقاليم الصعيد ! لقد تحيرت دموع الشكر والخجل فى عيني ، حين لمست هذه الرابطة التبادلة بين الأسر . إن هذه الصداقة المشبعة بالشوق والإخلاص ، والفرح للآخرين ، تتوارى فى القاهرة خلف أقنعة المآرب والشهوات ، وتغرق وسط ذلك الخليط المتنافر من مختلف الأجناس والأوساط . .

ما ألد أن يعيش الشخص فى وطنه حقيقة . . ولو أياماً كل عام .

١٦ يوليو

بدأت أستقر ، وأخلد للراحة السخية التي تمنحها هذه الجهات . إنى أنعم هنا بلحظات استجمام ولذة هادئة ، كلما فرغت لمطالعاتى المحببة . يخيّل إلى أن المتعة التي أتللمسها بين صفحات الكتب

تهبني صفاء ذهن عجيبياً .. لا يعكره «البارازيت» الذى يتخلل جو القاهرة المكهرب !

١٩ يوليو

دعيت مع أسرتنا إلى سهرة يقيمها الليلة والد رأفت - صديقى منذ الطفولة - احتفالاً بالعام الأول للطفل الذى رزقته ابنته «اعتدال» . بدأت أضيق بهذه الحفلات المملة . أود لو أعتذر عن الذهاب .. لكنى أخشى أن يعد ذلك «حركة سخيفة» منى !

٢٠ يوليو

كيف خطر لى أن أعتذر؟! .. ما كنت لأنجو من الندم لو فعلت ! فقد كانت السعادة تنتظرني هناك دون أن أدري . بدأت أعتقد أن المفاجأة السارة التى يهيئها لنا القدر فى لحظة انشراح ، تجيء أروع من كل ما نسعى إليه شهوراً طوالاً !

.. كيف أبداً ؟

كان البيت يموج بالأسر المتحابة التى دعيت .. وقد ازدحمت ببعضها شرفته ، وبقي الآخرون فى الصالون يتسامرون وينضجكون ، يسودهم ذلك الضجيج الذى عرفت به حفلاتنا . ولم أكد أجلس حتى ذكرنى المقعد الذى قدم لى ، بإحدى صور الطفولة . كم أنهكنا تلك المقاعد فى صغرنا ، حين كان لا يحلو لنا

اللعب ، أنا و « سلوى » - الأخت الثانية لرأفت - إلا فى الصالون ،
وعلى البيانو الذى يحتل أحد أركانه !
وتذكرت « سلوى » . . إنها لم تحضر مع أسرتها يوم جاءوا عقب
وصولى . . فأين هى ؟
درت بعينى فى أنحاء المكان ، ولكن إحدى الفكاهات التى كان
القوم يتندرون بها ، أنستنى ما كنت بسبيله . .
... حتى اقترحت إحدى المدعوات أن نسمعنا « سلوى »
مقطوعة على البيانو ، وأيد الجميع الاقتراح . . فجاءت سلوى من
إحدى الغرف وقد أخرجها التصفيق ، ورفع إلى وجهها حمرة
عذبة ! . . لم أكن رأيتها منذ أربعة أعوام ، منذ تركتها صبية فى
الخامسة عشرة ، فإذا بها الآن قد نضجت واستطال قوامها . .
و لم تكسد تقرب من البيانو الذى كنت أجلس بجواره
حتى . . آه ، لقد صدمتنى فيها عيناان ، يشع منها نور ونار !
ورحت أرمقها وهى تعزف لحن « العيون السوداء » . . وأنا أتلقى
الصدمات تلو الصدمات ! . . كانت أناملها تقطف من البيانو فى
رشاقة ، صدى الأنغام التى خلقتها تترقرق من أهدابها الطويلة
الفاحمة ، فتغشى الحسّ واهنة خائفة ، حتى يسكن إليها ويستنيم ،
فتعنف وتثور ، وتدب فيها الحياة قوية جامحة ثم . . يعود السكون
من جديد .

عجباً ! . . من كان يظن أننى أتلعثم أمام سلوى ؟

لم يكد صدى النغم الأخير يموت في آذاننا حتى أحسست
بالكلمات تتزاحم على لساني ، فتقدمت من سلوى محيياً ومهنئاً ..
ولكني لم أنطق بغير بضعة ألفاظ خافتة ، تبخر باقيها على وهج
نظراتها فتلعثمت .. ولحظت هي مني ذلك فارتبكت قليلاً وهي
تبتسم ، وترد تحيتي بهيمنة لا معنى لها ، في حين راحت عيناها
الحجلتان تتلمسان شخصاً آخر يكلمها ..

بدا واضحاً إدراكها أنها قد غدت عذراء ، وغدوت رجلاً !
وأعد العشاء ، فوجدتني أحرص على الجلوس إلى جوارها ،
متجاهلاً المقعد الذي قدم لي في مكان آخر .. كانت جراءة أعجب
الآن كيف واتتني ، وإن كنت لم أعبأ وقتئذ ، بل اكتفيت بأن أجلت
بصري بين الحاضرين متلمساً أثرها ، فتبينت أن أحداً لم يلحظها ،
إذ كانوا مستغرقين في الأحاديث والضحكات ، وعيونهم « تهضم »
الطعام الشهى الذي حفلت به المائدة !

وشبع الكل ، ما عداي وسلوى .. فقد كان كل همي أن أنتهز
فرصة ارتفاع أصوات نفر من المدعوين ، في حريث صاخب ،
لأهمس لها بآية كلمة أو تعليق أجده على لساني ، كي أشبع بصري
من وجهها ، وأدفيء روحى بالفتنة التي تشتعل في عينيها ..
وكانت إذا ما أعيتني الردود ، تذكر فجأة أن أمامها طعاماً لم
يؤكل ، فتهرب من الجواب ، وابتسامة حيية تتعثر على شفثتها !
ما أغرب الشعور الذي تخطف حواسي في تلك اللحظات ! إنه

شعور الانسان بفرح طاغ وراحة خفية ، لإمكان ازدياد التفاهم بينه وبين الشخص الذى يخصه بإعجابه ، وينعم بقربه .

لقد صحوت مع الفجر منذ لحظات ، فوجدتنى أتحسس راحة يدي . خيل لى أنها اختزنت الدفء الذى سرى إليها من يد سلوى حين اتكأت عليها عند الباب ، وقت الخروج ، فترة أطلناها عمداً . . وأنا أهمس لها : « إلى اللقاء » !

وخرجت وقتئذ ، وكيانى يعانى حمى فضول عجيب لا يزال يغشائى : ترى هل كتب لروحي الحائرة ، الظمأى إلى عاطفة تطهرها وتغسل وحشتها المقبضة . . أن تجد واحتها أخيراً ؟

٢٣ يوليو

قنعت اليوم من سلوى - حين كنا فى منزل أهلها - بما نالنى من « رشاش » أحاديثها ونظراتها . .

وقنعت هى منى بالمثل !

كم أتوق إلى أن أسمع منها مراراً ذلك اللحن الروسى الذى يتفق مع طبيعتى الثائرة : لحن « العيون السوداء » ! . . إنها فاتنة وهى تعزفه .

٢٩ يوليو

يا للنحس !! لم أكن بالبيت حين حضرت سلوى اليوم مع أسرتها

لزيارتنا ! . . ولم أكد أعلم حتى اعترتني نوبة من الكآبة والضيق ،
فاعترمت ألا أبرح البيت إلا للضرورة ، طوال الأوقات التي يحتمل
حضور «أحد» فيها . . لئلا تتكرر المأساة !

٢ أغسطس

انتهزت اليوم فرصة حضور أحد الزائرين في غيبتى ، ونبّهت على
أهل البيت أن «يتعلموا النظام» ، ويتعاملوا مع الجميع على أساس
تبادل الإخطار بالزيارة قبلها بيوم أو يومين !

٢٧ أغسطس

يخيل إليّ أن القدر قد كفّ عن مناوأتنا ، وبدأ يقرب بيننا - وبحسنا
على أن نسهل مهمته ! - فقد جمعتنى المصادفات مع سلوى وأخواتها
عدة مرات ، في مناسبات مختلفة : في الطريق ، وفي سينما البلدية ،
وفي منزلهم ، ومنزلنا . . وفي كل مرة كنا نتبادل جميعاً الأحاديث في
أى موضوع ، فأحس لمجرد سماعى صوتها ، وملء عيني من البشاشة
التي تفيض من وجهها ، براحة تزيل ما قد يكون بنفسى من
الضيق ، وتضفى علىّ مرحاً وجدلاً لا عهد لى بهما . . فأقضى بقية
اليوم نشطاً طروباً ! ما أعذب هذا الشعور . .

٨ سبتمبر

استطعت أمس أن أحظى ببضع دقائق قضيناها منفردين ، حين

كنا فى السينا وتركنا رأفت فى «الانترأكت» لآتحدث مع صديق له .
كان الهواء نديا يرطب الوجوه ، فأحسست بانتعاش غريب ،
شجعنى على أن أهمس لسلوى ، وبصرى بجوس حائراً فى عينيها :
- ألا أستطيع دخول «الغرفة المظلمة» ؟

- ماذا تقصد ؟ أية غرفة مظلمة ؟

- قلبك ! .. لست أطمع فى غير لحظة فقط ، لأرى كيف

انطبعت صورتى فيه !

قالت وهى تضحك ، لتخفى حياءها العذب :

- إنها فى دور «التحميض» ، لم تنطبع بعد .. فاحذر من اقتحام

الباب وإلا «أخذت الصورة نور» ، وتلفت !

وجاء رأفت ..

وبدا الفيلم ..

لكنى لم أفهم منه شيئاً !

١٥ سبتمبر

فاجأت اليوم سلوى وحيدة فى صالون منزلها ، تعزف «العيون
السوداء» ، وتصفر مع البيانو بصوت خافت طروب .. فجلست -
دون أن أنبهها لوجودى - أستمع للأنغام الثائرة .. وجمح خيالى فهياً
لى أشتاتاً من الصور الممتعة : أنا و«زوجتى» سلوى وحيدى ، فى
أصيل أحد أيام الشتاء ، فى قارب صغير يحتضنه النيل ، وأيدينا

تتلاقى تحت مائه البارد - خفية عن العيون ! - فتبعث الدفء في
جسدنا . . وأنفاسنا تتعانق في الهواء ، فتنفث فيه حرارة تعقد فوق
رأسنا سحابة ، نختلس خلالها قبلة طويلة ، لانفثق منها إلا وقد
بلغنا الشاطئء واندفعنا نجرى صوب البيت في نشوة ومرح . .
وانتهت سلوى من العزف ، ففوجئت بشخص يصفق لها ! . .
واستدارت لترانى شبه حالم ، وأنا أسأئلهامبتسما عن . . صورتى في
قلبها !

وأجابت ، طالبة منى أن أمهلها أسبوعاً آخر . . ثم مضت لتنادى
أخاها ، كى يجلس معنا !
ما أشق الانتظار . .

١٨ سبتمبر

لا أستطيع صبراً . لقد غدا حبى لسلوى الغذاء الذى يقتات منه
وجدانى ، والنبع الذى أسقى منه آمالى وأطماعى ، وثقتى فى مصير
باسم يقترن بمصيرها ، ومستقبل كله خير ونجاح مطرد . .
أود أن أطمئن إلى أنها تبادلتنى نفس الشعور ، وتطمع فى نفس
المصير . . فمتى ؟

١٩ سبتمبر

إن حبى للحياة يزداد باضطراب . لقد غدت فى نظرى شيئاً
يستحق الكفاح والصبر ، فى انتظار المجهول . . عجيبة حقاً هذه

الأحاسيس التى حفلت بها نفسى منذ بدأت أقطف من عينى سلوى
نظرات التفاهم ! ... يخيّل إلى أن عالماً جديداً جذلاً ينكشف أمامنا
لأول مرة ، حين نحب . . وأن شعاعاً من النور يضيء حياتنا ،
منبعثاً من قلب المرأة الطاهرة عندما تحب . . فتتوارى الرذيلة التى
لا تختمر إلا فى الظلام ، ونحتقر ضعفنا وماضيها العاثر . . ظامئين
إلى بعث جديد !

كم أتوق إلى أن يكون قلب سلوى - لى - مبعث ذلك النور . .

٢١ سبتمبر

لقد دخلت «الغرفة المظلمة» ! . . فتحتها لى سلوى بنفسها ،
فرايت صورتى فيها ، منطبعة بوضوح . .

حين أنبأتها بقرب سفرى إلى القاهرة ، لقضاء العام الأخير من
دراستى ، وبأن لا مفر من أن تطمئننى ، أو تطردنى من سمائى التى
أحلق فيها ، كى أنشد السلوى على الأرض ، حيث كنت . .
صارحتنى بالحقيقة الحلوة : إن صورتى فى أعزّ ركن من الغرفة
المظلمة ، وإنها تتمنى لو طال وجودنا معاً !

وسكتت . لم يطاوعها الحياء على أن تنطق بأكثر من ذلك . .

وكان فى هذا كل كفايتى من الزاد ، طوال العام الذى أمامى !
وعدنا بعد حين ، وقد وضعنا فى قلبينا أساس عش مشترك
جميل ، بعد أن اختلسنا من « شلة » الأقرباء الذين كنا نتنزه معهم ،

لحظات ممتعة تحدثنا فيها عن ذلك كله ، حديث روحين تآلفا على نغم واحد ، وراحا ينشدان اقتران نجميهما في سماء الغد المجهول . .

٢٥ سبتمبر

خطر لى اليوم خاطر عجيب ، حين بلغت القاهرة وركبت الترام إلى مسكنى : هذه المقاهى المكتظة بالناس ، التى يموت فيها نشاط الشباب ، ويحمد فيها ذكاء الرجال ، ويتبلد فيها تفكير الشيوخ ، ليست إلا ثمرة تقاليدنا الفاسدة . لو كانت كل أوساطنا تستسيغ أن يختلط الرجل بالمرأة فى المجتمعات ، لقضاء أوقات الفراغ فى رفقة طيبة ، لامتنت مآسى اللقاء وراء الستار ، ولما صارت حياتنا معتمدة بملة : الرجل فى المقاهى يقتل الساعات فى غير جدوى ، والمرأة فى البيت يقتلها الضيق والسأم ، وكلاهما بعيد عن الآخر ، جامد الذهن ، فاقد الحيوية والحافز على الكفاح . .

لن أكون من زبائن المقهى قط !

هذا ما قررته . .

أول يناير

كيف فعلت هذا ؟! . . إنها غواية من الشيطان ، تلك التى ساقتنى ليلة أمس إلى (الليدو) ، لأعيش لحظات فى ذلك الجو الراقص الطروب الذى يولد فيه العام الجديد . . فكان أن نقلتنى

بضع كؤوس من الشراب أغراني عليها فريق من «شبابنا
الناهض» .. إلى أحد أوكار الرذيلة ..

ولم أفق إلا في الصباح !

أفقت ليطالعني وجه صبح .. وجه سلوى ، المثل من صورة

لها على مكثي !

لم أستطع مقابلة النظرات الحزينة العاتبة التي خلقتها تهطل من
عينها ، لتغسل حبنا الذي دنسته خطيئتي ..

إن ذلك لن يتكرر .. لقد أقسمت ، وقرنت قسمي بوضع

صورتها في جيبي ، غلافاً لقلبي !

٣ أبريل

مرت بي الليلة إحدى أزمات الضيق التي تتابني كلما أرهقتني
الدروس ، فألقيت الكتب جانباً وقمت إلى «الجراموفون» أدير عليه
اسطوانة «العيون السوداء» ..

وللحال ذكرت سلوى !

وقفز إلى خاطري يوم الامتحان . لم يبق إلا شهران وأنهى من
الدراسة لأعود إلى .. نفسي ، وأشرع في بناء العش الجميل الذي
رسمنا تصميمه معاً منذ شهور !

ووجدتني أخرج صورتها من جيبي وأمضي في لثمها ، وقد دبث

في صدري مطامع عجيبة ، وانبعث في رأسي عزم جبار ..

وأحسست بالفارق بين هذه الحياة ، وذلك الزكود الذى كان
يكتنف روحى السقيمة . . فيما مضى !
ولم أعرف أنى أستطيع الغناء إلا وقتئذ ، حين انكبت على
دروسى وقد اشتعل ذهنى بوقود جديد ، ورحت أردد إحدى أغانيها
المصرية المحبوبة !

١٠ يونيو

صحوت اليوم وى إحساس من ينهض من مرض طويل ، ثم
تنهت بعد لحظات لأدرك أنى قد فرغت من الامتحان ! . . ما ألد
أن يخلف الشخص وراءه سنوات من الدراسة المتصلة المرهقة ،
ليتطلع إلى مرحلة أخرى من الطريق ، وآفاق جديدة . .
لقد اعتزمت العودة إلى «البلد» غداً ، قبل ظهور النتيجة ، فإنى
لا أطيق الانتظار . . يا إلهى ، ترى كيف أرى سلوى بعد هذه
الشهور الطوال ؟

١٢ يونيو

يا لنظراتها الظمأى وهى تلقانى ! . . قرأت فيها أن حبى قد وجد
فى قلبها منبتاً خصباً ، فتعمقت جذوره وترعرع . . ولاشك أنها
قرأت فى نظرتى نفس الصفحات ، فقد أرخت عينيها والغبطة تطفّر
من أهدابها ، وتشيع فى وجهها حمرة ساذجة . .
كم هى فاتنة !

٢٣ يونيو

لم تكد الدنيا تسعنا من الفرح ، حين زففت إلى سلوى خير
نجاحي . . ترى متى أوفق إلى عمل يمهد أمامي السبيل إلى رضا
والديها ، ولو تأخر الزفاف سنوات ؟

٢٧ يونيو

ثار والدي في وجهي اليوم حين أنبأته بفضيلي العمل في إحدى
الشركات على الوظيفة الحكومية التي بدأ يبحث لي عنها ، ويرسط
الناس !

عبثاً يحاولون . . فلن أتبل وظيفة آية ، تقربني دهنى كل نشاط
وطموح . إن آمال سلوى تفوق هذا المستقبل الراكد المحدود .

٥ يوليو

حدث اليوم ما دفع إلى مخيلتي مزيجاً من الخواطر السوداء ! كنت
أرفع عن « الجراموفون » اسطوانتي المحبوبة ، حين انزلت من
أصابعي ، وانكسرت ! . . أحسست لحظتئذ كأن طائر الشؤم قد
انتزع قلبي من مكانه ، وعجزت عن مغالبة موجة القلق التي طغت
على طوال الصباح ! ولكنها كانت أوهاماً . . لم يلبث أن وصلني
خطاب من إحدى الشركات الهندسية التي كنت قد طلبت العمل
فيها منذ أيام . لقد قبل طلبى ، ولم تبق سوى الإجراءات
اللازمة . .

إنه المستقبل الذي كنت أطمع فيه !

٧ يوليو

لقد تحطمت القيثاره فجأة . . على غير انتظار !

جاءتنى سلوى دامعة لتنبئني بما حدث : لقد جاءها أبوها مع
الفجر ليهنئها على «النصيب» الموفق الذى طلب يدها ، فقبله
باغتباط ! يكفى أنه موظف كبير يتقاضى مرتباً دسماً ، وله رصيد فى
البنك . . فضلاً عن أنه يناهز الأربعين ، فهو رجل «رزين» . . وله
فى البلدة كلمة مسموعة ، و . . .

ولم تملك سلوى أن تمضى فى تعداد مناقب «العريس» المنتظر ،
فغاض صوتها ، وانخرطت فى البكاء . .

يخيل إلى أن نوعاً من الكبرياء يولى الإنسان قوة مفتعلة حين يرى
من هو أضعف منه ، أولى بالثناء . . فقد مضيت أسرى عنها ،
وأسقى فى قلبها الرجاء ، وأنا - فى أعماقى - فريسة لليأس !
كلا ، لن أتخلّى عن حبنا . .

سأواصل النضال !

٨ يوليو

كم أنا تعس !

قابلت أباهها الليلة ، وصارحته بحبى لسلوى ، ولكنه رفض . .
أبى أن يقيم وزناً «لهذه الخيالات التى تمارى فيها شباب اليوم !»
وكاد لسانى يصارحه أيضاً بحبها لى ، لولا أنى ذكرت أحاديث

الناس عن الفتاة التي تحب ، كأنها أجمت ! فأشفقت على سلوى
من عاقبة وقوف أبيها على نبا هذا «الفجور»؟! .. ولم أجد بداً من
إكمال عبارتي بالتساؤل عن .. موافقة سلوى على هذا الزواج ؟

يا إلهي .. كيف استطعت أن أستمع إلى هذا «التاجر» وهو
يتحدث؟! : «إن الأمر لا يحتاج إلى موافقتها ، فالرجل لائق ،
وموارده كفيلة بإسعادها» .

... كان يتكلم ببساطة عن مميزات «الصفقة» ، وعن موعد
تسليم «البضاعة» !
لقد تحدد القران بعد شهر ..
ولم أسمع أكثر من ذلك !

٩ يوليو

كان مأتماً حزيناً !
لقد دفنا معاً حبنا الموءود ، وأهلنا عليه الذكريات ..
وكان المشهد صامتاً موحشاً ، وليس في المكان سوانا .. فإن الميت
مكروه ، حظى بسخط المجتمع .. والناس !
ووقفنا أنا وسلوى نشيعه ...
وران علينا السكون ..

كنا نذكر المكان ، فقد وقفنا عنده منذ شهور ، يوم رسمنا
الأساس لعشنا الجميل .. ولكن الرسم قد زال ، قبل أن يرتفع

البناء ! يبدو أن النيل قد تسلل في غيبتنا إلى الجرف ، ولحق كل شيء ، فقد زالت أيضا الحشائش الندية التي كانت تطرز الشط ، يوم قطعت جذعاً منها ولففته حول أصبع سلوى .. فتفاهمنا ! لم تعد الحشائش ترعى عهدنا ذاك ، فقد جرفها النهر فيها جرف ، ومضى !

لم نكن يومئذ وحدنا ، ولكننا اختلسنا تلك اللحظات ، في غفلة عن العيون .

واليوم ، التقينا منفردين ، ولكن أرواحنا لم تكن معنا .. لقد انفلتت إلى الماضي لتحيا فيه من جديد ، بضع لحظات ..

قلت ونحن واقفان : «لقد انتهى كل شيء .. ليعد كل منا إلى دنياه ، علّها تنسيه الفردوس !»

قالت : «محال أن أغالط نفسي . ربما استطعت أنت النسيان ، فأمامك دنيا أخرى ، ومستقبل ، وأطباع ، وستجد حتماً من تسعدك .. ولكن حالي يختلف . إن الزواج هو كل دنيا المرأة ، ومستقبلها ، وأطباعها .. وقد اختيرت لي دنياي ، وانتهى الأمر ! .. إني تعسة يا فكري .. من كان يظن أنني أتزوج رجلاً تفصل بينه وبينى عشرون عاماً ، ولم أره إلا منذ يومين ؟ .. إني أعلم ما سيجول في أفكار الناس ويدور على ألسنتهم ، حين يرونني ليلة الزفاف : سيجزم الكل أنني تزوجته لماله .. وإني لن أحزن يوم يموت ! .. هل تذكر الليالي السعيدة التي كنا نطيل فيها النظر إلى

السماء ، ونرمز لهناثنا بالملح نجمين ؟
... إني لا ألمح الليلة نجمي بين النجوم .. لا أرى أمامي إلا
الظلام ، الظلام دائماً . أوه يا فكري ، كم أنا خائفة !
وحجبت وجهها بيديها وهي تدفنه في صدرى ..
وتركت رأسها ينام على ضلوعي ، وأنا أودع شعرها قبلات
صامتة ، لم تحسها .. حتى هدأت ، ورفعت وجهها إلي ..
كان قد تندى بنجوم صغيرة ، لم تلبث أن هوت .. وانطفأت !
وترنحت على شفيتها ابتسامة شاحبة ، ونحن نفرق ..
ثم مضت .. ومضيت !
إنها محقة : ما أظلم الطريق .. أمامي أنا الآخر !

(٣)

٢ نوفمبر ١٩٤٦

... ولم أكن واهماً ، يوم أحسست ذلك منذ أعوام .. فإن
روحي ما تزال تتخبط في الظلام ! .. لقد تنفس الفجر منذ
لحظات ، وأنا في مقعدى لم ألمس الفراش . إني أذكر ما حدث :
كنت ذاهباً ليلة أمس إلى المقهى الذي اعتدت أن أقضى فيه أكثر من
ساعات عمل في « المصلحة » .. حين لمحت الأسطوانة ، فابتعتها
وحملتني إلى البيت ، وحملتني هي إلى الماضي ، وعدت منه متعباً ،
فأدرت « الجراموفون » من جديد ..

وأطفأت النور . . وأغمضت عيني . .
لم أكن أنوى أن أنام . . قصدت فقط أن أريح أعصابي ، وأتحرر
من المراثيات التي تفسد على خلوتي مع «العيون السوداء» !

ولكنني أغفيت . .
ورأيت سلوى في أحلامي مراراً . . رأيته واقفة أمام المرأة تصلح
شعرها الفاحم الذي أودعته قبلاتي الصامته ، يوم افترقنا . . منذ
خمسة أعوام ! . . وفجأة تطل على من إطار النافذة ، وقطرات المطر
تسيل من عينيها خلف الزجاج . .
ثم تهبط إلى جوارى لتزف إلى أنها قد غدت حرة ، وستكون لي !
وتردف قولها بقبلة ، فتلفح أنفاسها وجهي و . . . أفيق متثبياً . .
لأجد الغرفة في ظلام خائق ، وليس بها سوى !
يا إلهي ، كم يلذ لي أن أتعذب بالذكريات !

٧ نوفمبر

كلا ، لم أعد أطيع . .
لقد أمعن القدر في لهوه السمج !
بينما كنت أودع صديقاً لي ، رأيته الليلة في القطار ، واقفة
بالنافذة تبتاع حلوى «لطفها» ! . . وجرى الطفل ليلحق بأبيه في
ديوان قريب . .
إذن فهم عائدون بعد إجازة العيد ؟

أشفت أن نلتقى ، بعد فراق أعوام ، فتعاودها أطياف ربها
تكون قد نسيتهما ! .. ولكنى لم أفو على الابتعاد ، فإن روحى -
الظماى منذ بعيد - قد استمرأت أن ترتوى من « العيون » التى
أمامها !

ورأتنى سلوى !

قلت وأنا أقمع الانفعال فى صوتى : « أنت .. هنا ؟ »
قالت ويدها تختلج فى يدي : « وئى يا فكرى .. أهكذا
تسأنى ؟ »

- إنك سعيدة ، وإلا لما ظلمتنى . قولى إن قلبى لم يطاوعنى على
أن أدع الماضى يلاحقك ، ويعكر دنياك الجديدة كلما صفت ،
وبدأت تنسين ..

- ولكن دنيائى لم تصف ! .. أجبرت قلبى على أن ينسى ، من
أجل زوجى ، فهو يحبنى ، ويتفانى فى إرضائى .. ولكن ذلك كله
لم يجد ! إن سدوداً قوية تفصل بيننا فى الطباع ، والأفكار .. وكل
شئ .. إنه لا يفهمنى ولا أفهمه .. فهو ليس من دنيائى !

لم أحرك عينى عن وجهها وهى تتكلم .. كانت قسماته تختلج ،
وتنطق بالألم .. وعيناها ، أين الفتنة التى كانت تشتعل فيها ؟ لقد
انطفأت ، ولعت مكانها الدموع !

ووجدتنى أقول : « كلها أوهام يا سلوى .. إننا فى فجر الشباب
نكون أغراراً ، نسلم قيادنا للأخيلة ، ونسرف فى الأحلام ..

لأنكاد نلمح بريقاً حتى نظن وراءه السعادة ، في حين تكمن هذه
وراء المادة والمال ! . . ما الحب إلا سراب زائف . . .
ولكنها قرأت في عيني أنى أكذب ، لأواسيها ، فحاولت أن
تبتسم . . لكن الابتسامة تحاذلت على شفثيها وهي تهمس ، خلال
صغير القطار : «وداعاً يا فكرى . . لا تقلق . . إني بخير»
وعاد زوجها ، فاستدارت إليه بوجه بشوش . . وأمسكت بالطفل
تحنو عليه . .

كم هي نبيلة . . وشقية !

وحين ابتعد القطار ، وسار بى الترام في طريق (الجيزة) الغارق
في الوحشة والسكون ، كانت المدينة تلقى وراءنا ضحكاتها
الساخرة . . !
ما جدوى النفاق . . إن في قلبينا حقداً دفيناً ، على المجتمع . .
والناس !

(نوفمبر ١٩٤٠)

الأرملة المرحلة

كانت - وهي تخطر إلى داخل البيت ، الغاص بالمدعوين ، في ثوب السهرة «الموسلين» الأسود الذى يغلف ذراعيها الناصعتين بكمين من الدنتلا ، تتقدمها نفحة من العطر المسكر ، تفسح لها الطريق - تمثالا نابضاً بالغواية ، ونموذجاً للسحر الحرام !.. للفتنة التى تمشى على ساقين ، فى خطوط رشيقة متزن .. خطو الجمال الواصل من نفسه ، وسلطانه ، فى غير زهو .. وكأنها تمشى على بساط من قلوب ، ومن جباه !

وتلقفتها أبصار الرجال بخليط عجيب من النظرات ، تحمل جميعاً نفس المعانى ، والأمانى .. والحسرات !.. أما عيون النساء فقد تلقتها بفيض مخالف من المعانى ، والأمانى .. واللعنات !.. لم تكن بينهن إلا من تخشى على رجلها من سحر هذه المرأة التى استفاضت فى مجتمعات (جاردن سیتی) أنباء حياتها العابثة الطليقة ، من يوم أن هبطت الحى - قادمة من مكان مجهول ، وماض مجهول ! - فلم تمض شهور ، حتى صارت أقدار الرجال تقاس فى مجتمعات النخبة المصفاة من المترفين ، بمقياس العصر : بمقدار حظوتهم لدى «بهيجة» !.. كان السعيد هو الذى تشير إليه أصابع

الناس ، وألستهم ، حاسدة ، مشيدة بـ «الشرف الرفيع» الذى أتبع له : شرف عبور قدميه المتعثرتين عتبة «الجنة» . . . أو مسكن بهيجة الخاص !

لكن همسات - وغمزات ! - الحاسدين ، المحرومين ، لم تكن تعرف الثبات أو الاستقرار . كانت تنتقل كل حين بين مختارى بهيجة المحظوظين ، كما تنتقل كرة «الروليت» بين خانات مائدة القمار ! . . . فلا يمضى شهر إلا وقد تغير «الجواد» المفضل - «الفاقورى» - فازداد بتغيره عدد الظافرين بدخول جنتها واحداً . . . وازداد عدد المطرودين من الجنة - المحاربين القدماء ! - واحداً . . . فإن بهيجة امرأة قنوع ، لا يلتقى فى جنتها عاشقان !

. . . وأقبلت عليها ربة البيت مرحبة ، والتفّ المعجبون حولها فى تهافت العبيد ! . . . أما هى ، فسارت تشر على مستقبلها الضحكات الناعمة ، واللفتات الناعسة ، من طرفها الساجى . . . حتى بلغت آخر البهو ، فانضمت إلى حلقة مختلطة من الأصدقاء ، لعلها أثرتها بشرف الجلوس معها - دون غيرها من الحلقات التى وجهت إليها الدعوة ، فى الطريق ! - لأن مضيها إلى أقصى البهو يتيح لها أن تعرض حسناتها على الجميع ، قبل أن تخلد إلى الجلوس . . . وتستريح !

وفىها هى تعتدل فى جلستها ، فتضع ساقاً على ساق ، وتدلى ثوبها

فوق ركبتيها بأناملها الرشيقة ، في حركة احتشام مفتعلة - هي أمعن ما تكون إغراء ! - التقت عيناها بعينين محمومتين ، كانتا تتبعانها دون وعى منذ افتر عنها باب المكان !

ولأول مرة - فيما يذكر - أحس « فتحي » أنه .. تعس !
وتولاه سخط قوى على نفسه ! كيف يعيش عفيفاً محروماً ، وفي الدنيا مثل هذا الجمال .. المباح ؟ .. وإلى متى يظل يحيا « على هامش الحياة » ، ينظر إلى دنيا المتعة ، والخمر ، والنساء ، نظرة « السجين » إلى حياة الحرية ، واللهو ، والانطلاق .. بل نظرة القانع بأن يقف مكتوفاً ، وصحاف الطعام تتوالى أمامه ، حافلة بالمشهيات .. وموكب الحسن يتتابع أمام بصره ، مغرياً بالحماقات ؟ .. إلى متى يظل سجين هذا الخجل الممقوت ، الذى يكبل شبابه بأغلال موجعة .. أغلال من حرير ، أشد إدماء من أصفاد الحديد ؟ .. هذا الخجل الذى « نكبته » به نشأته المحافظة ، فى عصر كله تحرر ، ودنيا كلها أحرار ؟ ..

أترى قد كتب عليه أن يكون الراهب الوحيد ، فى معبد كله زنادقة ؟ .. لقد طالما تنذر إخوانه عليه ساخرين ، وعيروه بحيائه « المصطنع » ، وبرداء الوقار البغيض ، والترفع الكاذب الذى يصير على أن يرتديه ، ويزهوبه على الناس .. وهو فى الواقع رداء العاجزين ، لا الزاهدين ، كما قالها له يوماً صديقه حامد .. المرحوم حامد !

يا لمرارة الذكرى ، وسرعة مرور الأيام ! . . أحقاً قد انقضى أكثر من عام ، منذ فارق حامد الدنيا ؟ . . لقد اختطفه الموت من حياة متخمة بالهناء ، وكأنها رأى أنه قد استوفى حظه من مباهج الدنيا ! . . كان أحد أولئك الذين يحبهم القدر بموهبته الكبرى : فن الحياة . . فيحسنون الاستمتاع بكل قطرة منها ، ويعيشون ليومهم فقط . . يقتنصون المسرات أينما وجدت ، ويضللون الأكدار . . يغرقونها في لجة من الضحك ، والصخب ، والانشراح . .

. . وهكذا سعد حامد بالعزوبة . ارتشف منها أمتع ملذاتها . . فلما أحس أنه ارتوى ، وتعب ، لم يضيع وقتاً في التردد . . يادر بالزواج . . فكان كمن انتقل من جنة إلى جنة ! . . نبذ معيشة الفوضى والبهيمية ، بين أذرع صديقاته العابثات ، واستكان لحياة الانتظام والدعة ، في عشه السعيد ، في أحضان «ملاكه الطاهر» - كما كان يدعو زوجته !

وحين رزق طفله «سامية» ، ازداد تعلقه بالبيت ، وإهماله «شلة» الأصدقاء . . فلم يعد يوافيهم في المقهى - و«يتعطف» عليهم بجلسة ، قصيرة - إلا حين كبرت سامية ، وصار يأخذها معه كي تلاعب زملاء عزوبته ، وتضحكهم بلكنتها العذبة . .

يا لليتيمة الصغيرة ! إن فتحى لم يرها منذ وفاة أبيها ، لكنه مازال يذكر ابتسامتها ، ونغمها الحلوى تناديه بـ «عمى» ، كي شكره

على كأس «الجيلاتى» التى اعتاد أن يقدمها لها ، كلما رآها فى المقهى بصحبة أبيها ..

.. وأفاق فتحي من استرساله ، على جرس ضحكة فاترة من بهيجة ، ترقرت فى سمعه كنوع من الخدر اللذيذ .. فانتشى ، وعاد يسترق نظرات ظامئة إليها ، وقد أحس بدمه يلهب جسده كالسياط ! كلا ، إنه ما عاد يحتمل : كفاه تبتلاً ، وعذاباً ، وحرماناً . إنه سيتمرد على خجله ، ويحطم أصفاد الوقار الجائر ، الذى لا يليق بالشباب ! .. سيخلع رداء الترفع الكاذب - الذى يزهو به على الناس ! - وينزل من عليائه ، كى يشاركهم الحياة فى «الوحد» ! .. إن اللهو بالأحوال لعبة الأطفال ، وهو يريد أن يعود طفلاً ، يعبت كما يحلوه .. ويرتكب الحماقات ! .. وأى إنسان يقوى على مغالبة الحماقة ، أمام فتنة كالتى أمامه ؟

وفىما هو يدير فى رأسه هذه الخواطر ، اصطدمت عجلة تفكيره بترس ضخم ، بخاطر مفاجئ ، همس فى وعيه : «يا أحمق .. إنك تراود نفسك كى «تضحى» ، وتقدم على هذه الحماقة ؟ .. ولكن من أدراك أن فاتنتك ستعبأ بك ؟ .. من أنت .. وما هى مغرياتك ؟ .. أهى وجهك ، الذى خاضمته الوسامة ، أم جيبيك ،

الذى خاصمه المال ؟ . . بالله اعرف قدر نفسك ، واترك الميدان
لفرسانه !

. . وإذ ذاك تملكه شعور بالضعة والهوان ، أطفأ من حدة حماسه
وكبح جماح أطماعه ! . . ثم أسلمه لشرود ذليل ، طويل . . لم يفق
منه إلا على صوت ربة البيت وهى تقبل عليه ضاحكة ، متسائلة :
- هوه هوه ! . . فى أى واد أنت ؟ «خليك معانا» من فضلك .
ولكنك معذور ، فإنك تجلس وحيداً ، كيف لم أتنبه لهذا من
قبل ؟ . . آسفة جداً . . ولكنى سأكفر عن سيئاتى فوراً !

. . ثم مالت على أذنه ، وهمست متخافتة :
- سأقدمك إلى خير من ترفه عنك ، إلى «الأرملة المرحة» ، كما
نسميها ! ألم تسمع عن «بهيجة هانم» ؟ هيا هيا . . فقط أرجو ألا
تخيب رجاءنا فيك !
. . وأردفتها بغمزة من عينها ، ذات مغزى ! . . لكم يلذ أحياناً
لربات الخدور ، العفيفات ، أن يتصدقن على العزّاب . .
بغيرهن !

ثم قادت من يده إلى . . حتفه !

- هل لك فى كأس خامسة يا بهيجة هانم ؟
- شكراً ، لا أستطيع . .

- إذن فلنخرج إلى الحديقة...
- ماذا؟ هل سئمت ضجيج الراقصين؟
- بل ضقت بهذه النظرات التي تكاد تلتهمني من كل جانب...
- لكن الجميع يحسدونني على رفقتك!
- ومالك تترنح... هل ثملت؟
- من خمر عينيك!
- أهكذا سريعاً؟... يا مسكين!
- (في صوت غير مسموع) كنت مسكيناً حقاً، في ماضى حياتي... أما الآن؟!
- (وهما يجلسان على أريكة في الحديقة) ماذا تعنى بهذه النظرات؟... ألم تتعب من التحديق في عيني؟
- إنني أسائل نفسي: كيف أحس بالظماً، وأمامي هاتان «العينان»؟... ولكن يبدو أنني كلما اغترفت منها نظرة، زادتني لهيأً. إنها تزيدان الظماً... كماء البحر!
- (كالشامة) رأيت؟... لقد بدأت تشفى من الخيال والشعر، وتهبط من سمائك!
- إن رائحة الشواء... تطفئني على عبير البنفسج!!

.....

.....

- ماذا تقول . . أكنت تقول شيئاً ؟

- هل كنت نائمة ؟ آسف إذ أيقظتك من أحلامك !

- بل أحس بدوار . . لقد أثقلت علىّ بالخمر . (وهي تتلفت

حواليها) ما هذا ، أكثر المدعوين قد انصرفوا ؟ لا بد أن الليل قد تقدم . يجب أن أذهب !

- ومتى نلتقى ؟

- (في ضحكة ساخرة ، ذات معنى) وهل افترقنا ، حتى

«نلتقى» ؟

- (في ارتباك) آه ، عفواً . . لم أكن أقدر أنك ستولينى شرف

مرافقتك حتى البيت . .

واستقلا عربة «حنطور» ، لم تكد تمضى بهما حتى أمالت بهيجة

رأسها على كتفه ، واستسلمت لتخدر ، يشبه النعاس !

وكان الهواء يعبث بشعرها ، فيلقى خصلات منه على خده ،

تدغدغ أعصابه . . فيتفاقم إحساسه بالتعاسة ، وهو يكظم شوقه

إلى احتضان هذا الجسد الحريري ، اللاصق به ! . .

. . وكلما مرت العربة تحت أحد مصابيح الطريق ، أضاء بنوره

الخافت وجهها الساجى ، وأجفانها المسدلة ، ورقبتها - الشبيهة برقبة

تمثال من المرمر لإحدى آلهات الإغريق ! - فزادها بهاء ، وسناء !

وأحس الفتى أنه فى حلم . حلم رائع ، سرقه من دنياه الكثيرة -

الخالية من المسرات ! - وألقاء فجأة في فردوس بهيج من الأحاسيس
والأخيلة الممتعة ، لم يكن له عهد به من قبل !

.. والعربة ماضية بها ، في سكون الليل .. والجواد يخب فوق
أرض الطريق ، في انتظام رتيب ، وكأن حوافره توقع «رومبا» نائرة ،
رقص على نغمها قلب الفتى بين ضلوعه ، رقصة النشوان ..
وتملكته رغبة مباغته ، فانحنى على الضم الناضج بين خديها ، يقطف
عنابته ، وهو يودعه قبلة .. استجابت لها المرأة بشفتيها ، وهي
تغمغم كالنائمة ، دون أن تحرك ساكنا !

.. وكانت العربة قد بلغت بيتها ، وهي ما تزال في سبات
المخمورة .. فحملها الفتى على ذراعيه إلى المصعد .. ولحظتها
فقط ، بدأت تفيق ، وتمسح النعاس عن أجفانها المتكسرة ، بأناملها
الوردية .. وهي تبسم له بعينيها الناعستين ، ابتسامة تسلب
الوعى !.. !

.. ثم دعته للدخول ، كى يستريح من عناء .. المصعد !

كلا .. إن هذا كثير !.. ما عاد المسكين يحتمل هذه الفرحة
الدافقة التي تسرى في بدنه ، وتنهش أعصابه !.. أحقاً أن له أن
يعبر عتبة «الجنة» !.. إنه لا يصدق نفسه ، وحسّه !.. لا يصدق
أن سنوات حرمانه الشاق قد انتهت ، وفردوسه المفقود قد وجد !

.. وأدخلته إلى الصالون ، ثم استأذنت منه في أن تغيب
لحظات .. فغاص في مقعد وثير ، مسنداً رأسه إلى الخلف ، وغاب
في تأملاته السعيدة ، وابتسامة الارتياح الخالص ترف على فمه !

.. كم مضى عليه في جلسته تلك ؟ .. إنه لا يذكر ! ..
لا يذكر إلا أنه تنبه فجأة على حفيف خطوات خفيفة ، بالقرب
منه .. فاعتدل في جلسته ، وإذا أمامه طفلة رائعة ، حافية
القدمين ، تفرك عينيها لتمسح النعاس ..

- سامية ! .. رباه ! .. سامية ! .. أهذا ممكن ؟

- فين ماما ؟ .. وفين دادة ؟ .. صحيت مالمقيتش حد في
الأودة .. أنا خايقة أنام وحدي .

- سامية يا حبيبتى ! .. انت لسه مش عارفانى ؟ مش فاكرو
«أونكل فتحي» ؟

- أونكل .. فتحي ؟ أيوه صحيح .. كنت فين من زمان
يا أونكل ؟ وفين بابا ؟ .. إمتى حايرجع من السفر ؟ .. هولسه
ما اشتاقش على ؟

.. وأدركتها الغصة ، فأغرورقت عيناها بالدموع .. وانخرطت
في نشيج خافت ، بين ذراعيه .. بينما راح هو يفرق وجهها بقبلاته
ودموعه ، وقد تناهيته الأفكار : إذن فبهيجة هي «الملاك الطاهر»
الذي كان حامد يتعبد في محرابه طيلة سنوات الزواج ؟ !

.. وكاد فتحى يستسلم لطوفان الذكريات والمشاعر التى
داهمته ، لولا أن تنبه لموقفه .. فأراد أن يحسمه - قبل فوات
الأوان ! - فتناول وجه الطفلة بين راحتيه ، وهو يقمع دموعه :
- سامية ، اسمعى يا حبيبتي .. أنا رايح آجى مرة ثانية علشان
أجيب لك حاجة حلوة . لكن دلوقت أنا ماشى .. لازم أمشى .
بس أرجوك تقولى لماما أن «أونكل فتحى» اللى كان صاحب بابا ..
بيسلم عليك !!

.. وطبع على خد الصغيرة قبلة أخيرة .. ثم انفلت من الغرفة
يسترق الخطى ! .. وفيما هو يعبر الردهة ، متلصصاً ، قفز
قلبه ! .. لمح «بهيجة» واقفة أمام المراة ، فى زاوية مخدعها المعطر ،
تترين .. وتطوى «روبا» حريراً على بدنِها الرخص ، وهى تتمايل
وتبتسم .. لنفسها !

.. انتابه دوار قاس ! .. فتردد برهة ، ثم وقف يرقبها من
مكانه ، وهو يرتجف ، كريشة فى مهب إعصار من الأحاسيس
المريرة المتضاربة ! .. ثم - كأنها ليقطع على نفسه الطريق ! -
أغمض عينيه ، ومد يده المرتجفة إلى الباب ، يفتحه فى حذر .. ثم
يغلقه خلفه !

.. وانطلق يهبط السلم عدواً ، وهو يلهث .. كمن يفرّ من
خطر داهم !

و حين استوى فى داخل أول «تاكسى» صادفه ، وأمر السائق
بالإسراع . . تنفس الصعداء ! . . أحس بارتياح ، موجع !
رباه . . لقد نجا !

(يونيه ١٩٤٦)

في المكتبات
كيمياء السعادة
حسين أحمد أمين

محتويات الكتاب

أيها الربيع . . ترفق !	٥
الرد خالص !	١٩
السراب	٢٧
قبض الريح	٣٦
خبز الهوان	٤٩
أزهار . . بيضاء !	٥٧
رجل . . له ماض !	٦٩
أبو الهول . . امرأة !	٩٠
ضلال قلب !	١٠٣
عيون حاملة !	١١٢
نادية	١١٩
العيون السوداء	١٣٠
الأرملة المرحاة !	١٥٢

إشترك فى سلسلة اقرأ تضمن وصولها إليك بانتظام

الإشتراك السنوى:

- داخل جمهورية مصر العربية ٣٦ جنيهاً
 - الدول العربية واتحاد البريد العربى ٥٠ دولاراً أمريكياً
 - الدول الأجنبية ٧٥ دولاراً أمريكياً
- تسدد قيمة الإشتراكات مقدماً نقداً أو بشيكات بإدارة الإشتراكات بمؤسسة
الأهرام بشارع الجلاء - القاهرة.
- أو بمجلة أكتوبر ١١١٩ كورنيش النيل - ماسبيرو - القاهرة.

رقم الإيداع	١٩٩٩/٥٧٣٢
الترقيم الدولي	ISBN 977-02-5811-3

١/٩٩/٣٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)